

سعيد عقل شعره والنشر

المجلد الأول

بنت يفتاح
المجدلية
قدموس

نوبليس

سعيد عقل

شعره والنثر

المجلد الأول

بنت يفتاح
المجدلية
قَدْمُوس

نوبليس

DL

للمؤلف

- بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)
- قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ — الطبعة الرابعة ١٩٩١
- المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ — الطبعة الثالثة ١٩٩١
- رندى الطبعة الأولى ١٩٥٠ — الطبعة الخامسة ١٩٩١
- غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)
- أجل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)
- لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ — الطبعة السادسة ١٩٩١
- كأس لخمير الطبعة الأولى ١٩٦١ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)
- الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلد الأول

بنت يفتح
المجدلية
قَدْمُوس

بنتِ يَفْتَاةٍ

مَأْسَاةٍ شَعْرِيَّةٍ مِنْ فَصْلَيْنِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٣٥

الطبعة الثانية مصححة ١٩٩١

إلى Q.A.

تَوَلَّى

أدُّبنا الكلاسيكيُّ في هذا الساحل من آسيانا يجهل
« الأنواع الأدبية »، حتَّى الأوليّة منها كالملحمة. وكان على
نهضتنا أن نحاول جهدها مجاراة آداب الأمم في هذا
المِضمار.

أترك الملحمة إلى ظرف آخر، وأكتفي هنا بدرس
المَرسح.

* * *

بشيءٍ من الجرأة، أُشِيع بناظري عمّا وسَمّوه عندنا بِسمة
المَرسح، لأبدأ بعرضٍ موجزٍ أتناول فيه أنواع المَرسح عند
الأمم الراقية.

ثلاثة مَراسح في الآداب العالميّة لم تُخفق : الإغريقيّ،

والشكسيريّ، والكلاسيكيّ الفرنسيّ في القرن السابع عشر.

الكلاسيكي الفرنسي صورة أروع للمرحح الإغريقيّ، فأترك أشيل وسوفوكل إلى كورناي وراسين. يبقى لديّ مسرحان لنوعين مختلفين : الشكسيريّ والكلاسيكي. على إن هذا الأخير نفسه، منقسم إلى نوعين مع راسين وكورناي. طريقة راسين تقضي بوصف « الأزمة في أشد حالاتها »، فإذا المأساة عاصفة مهتة من زمن تنفجر على المسرح فلا يمكنها، والحالة هذه، أن تطول أو تجري وقائعها في أماكن مختلفة، وهكذا تتوافر وحدتا الزمان والمكان. وطريقة كورناي تتابع وصف الأزمة من نشوئها إلى ذورة تفاقمها، إلى الانحلال. خذ له « السيد » مثلاً، فترى أن الأزمة لا تبدأ إلا بعد صفحة « الكونت »، إذ يقف « رودريك » حائراً : أترك والده سليب الشرف، أم يقتل والد « شيمين »، حببته ؟ فلو تناول راسين موضوع « السيد » هذه، لبدأ الرواية من هنا. ومن البديهي أن يكون منهج راسين هو الأكمل لبساطته ولاكتفائه بأخذ البعض من حالات النفس يرسل عليه النور، فتتجلى النفس وعواطفها بأجلى مظهر. وعليه يكون النوع الراسينيّ النوع الذي أقصده من المسرح الكلاسيكيّ.

أما المرسح الشكسيريّ فالثابت أنّ صاحبه لم يكن متضلّعاً من اللاتينية والإغريقية فيأخذ بمرسحهما وبرقيّة، كما فعل راسين، وهكذا نشأ مرسحه على العموم ضرباً من الأدب اليكر وبالتالي آخذاً بالملحميّة. فكما ترى في « الإلياذة » مثلاً، عصور إغريقيا الأولين، تتتالي أمامك حيّة أخلاقاً وعادات، هكذا في « روميو وجوليت » وفي « هملت » يتتالي عصران : إيطاليّ ودانمركيّ، يخفقان بأخلاق هذين البلدين وعاداتهما.

يظلّ البحث قائماً على راسين وشكسبير، فأيّ الاثنين نعتدّ في نهضتنا، وقد ثبتّ لنا أنّهما مختلفان ؟

الأوّل يتناول « أزمة » واحدة، يدرسها بكثير من التعمّق بحيث لا يعطيك النفس الواحدة إلّا وهي تخفق بين يديك كأنها نفسك. والثاني يتناول أزمت عدّة وجماعة كاملة. وإذا حالت وفرة أشخاصه دون التعمّق في درس كلّ نفس، فتعتاض أنت بأنّ امام عينيك عصرّاً كاملاً أو بشرية بأسرها، ولو خافّة الألوان.

فنّ الاول — وهو درس — يقتضي له، على قولهم، إنشاء وضعيّ رصين، يسير المنطق، أداة الدرس الأولى، فيخلو من المقاطع الغنائيّة او الملحميّة. وفنّ الثاني — وهو تصوير

عصر أو بشرية — يستدعي الإنشاء الغنائي والملحمي لغة البشرية في كل آن.

لا يجوز لنا الأخذ بأحد هذين النوعين، مهما كان كاملاً، إلا إذا وافق آميال بيئتنا وذوقنا. فما هو ذوقنا وما هي آميالنا؟ وهل نستطيع راسين بإجماعه، أو شكسبير بإجماعه؟

أخفق مرسح هوغو إلى حد، يوم أراد أن يحدو حدو شكسبير، فهل يعني ذلك أن المرسح الشكسبيري لا يوافق غير الانكليز أو أنه لا يلائم العصور الحديثة؟ وأنه لا يستند، ليعيش، إلا إلى « العتق »؟ وأنه لذلك حقيقاً بالإهمال؟ لا، والتشبيه الذي جئت به بعيد عن الحقيقة بعد شوقي عن راسين... فإنما لمرسح شكسبير مزايا مسرحية حقاً تفيدنا نحن الشرقيين على الأخص. فهو نوع أمثل « الفاجعة الشعبية » (mélodrame)، التي نجحت عندنا في « عاصفة في بيت » و« الذبائح » و« العواصف » لأنطون يزبك. ومن جهة أخرى أرى أن حالتنا في الشرق غير حالة مشاهدي هوغو في فرنسة. هؤلاء اعتادوا، مع راسين وكورناي، مرسحاً منطقياً يكاد يخلو من الغنائيات، فلولا بعض مقاطع من مثل « مونولوج رودريك » و« أغاني استير »، لرأينا المرسح الكلاسيكي الفرنسي خالياً من الوتيرة الغنائية. وجاء

هوغو فقدّم لهم فجأة نوعاً معاكساً تماماً. نحن في الشرق
موقفنا من هوغو، المتأثر بشكسبير، غير موقف الفرنسيين،
وقد اعتدنا أن نرى شاعراً يسمعوننا من على المنبر ٦٠ بيتاً
كلّها من النوع الغنائي، وقل أخيراً اعتدنا أدباً كاملاً يكاد لا
يعرف إلاّ النوع الغنائي. الفرنسيون ألفوا، في الكلاسيكية،
النظام والبساطة والوضوح. ونحن ألفنا « الفوضى
الفخمة » والتعرّض إلى « الملحّميات الناقصة » من مثل ادب
هوغو، وإني على مثل اليقين من أنّ صاحب « البوركراف »
لا يخفق على مسرحنا إخفاقه في باريس.

إذن نحن، إزاء مسرح شكسبير الغنائي الملحّمي، نحسّ
أنّنا في قلب أدبنا الكلاسيكي الذي لا يسعنا أن نخلعه
بالكلية.

أمّا راسين فيغري ذوقنا الحديث المثقّف على الأدب
الأوروبي، يغرينا بوحدة الازمة التي تمكّنه من درس النفس
البشرية، الأمر الذي ينبغي أن نلتفت إليه بظما في كتاباتنا الحديثة،
ويغرينا أخيراً بطريقة تسهّل — وهي وحدة ومنطق — عمل
الذوق، عدوّ الضّوضاء والفوضى.

لزام علينا، والحالة هذه، أن نلتفت بأنّ إلى صاحب
« أندروماك »، وصاحب « همليت ».

* * *

وبعدُ فقد تأثرت، في « بنت يفتاح »، بنهج راسين.
أخذت « أزيمة » وعالجتها وهي في « تفاقمها »،
فانقادت إليّ الوَحَدَات الثلاث، كما أنّي سايرت ميلنا إلى
الغنائيات والملحميّات فكنت كشكسبير غنائياً ملحمياً،
ولكن إلى حدّ، بحيث لا أسقط من المبالغات حيث سقط
هوغو.

وفي وصف النفس البشرية رأيت أن المُحدّثين لم يكتفوا
بتصوير دقائق العاطفة الواحدة، والعراك بين الأشخاص
المختلفين، بل صوّروا العواطف المتضادّة في النفس
الواحدة، وهكذا خلقوا « الفاجعة النفسية » أو « فاجعة
الضمير ». وهذه ميزة للادب الحديث على الادب الاغريقي،
فلم أمرّ بها من دون اهتمام.

وإجمالاً كان المرسح عندي « قلقاً ». فقد ذهب جول
لمتر إلى أنّ المرسح هو هذا « القلق » الذي يغمر قلوب
المشاهدين، اذ يتوقعون اصطدام خُلق بخُلق مُضادّ. فتخلو
الرواية من المفاجآت على المشاهدين، بحيث يتعرّفون
الموضوع كلّهُ منذ البدء إمّا لشهرته وإما لإتقان « العرض »
القصير، فلا يتساءلون بعدُ : « ما هو سرّ العراك النفسي ؟ »
لأنّهم مقدّماً يعرفونه، بل يتساءلون : « كيف سيتعرّف

أشخاص الرواية إلى هذا السرّ، وكيف سيتحمّلون خطبته ؟ ». « القلق » هو المسرح، كلّ المسرح، وقد تجلّى في الآداب العالميّة في مأساة خالدة : « أوديب ملكاً » لسوفوكل.

* * *

أما أن أكون أخذتُ في إنشائي بطريقتي المعروفة، التي تصف العواطف بالصُّور أو على الأصحّ بالأيحاء، فأمر ما أنا بالنادم عليه آتي به في المأساة. وقد آن للمتأدّين أن يفهموا أصول المسرح ومقتضيات أنواع المسرح. فالمأساة غير « القطعة » (pièce)، وغير « المهزلة »، وغير « الفاجعة الشعبيّة ». المأساة مفترض فيها « جلال الحزن، وأن ترفعك بإبهامها إلى مثل الحلم »، فتنفلت أنت — وهذا شرط الفن — من الحقيقة الوضعيّة. ولهذا أوجبوا فيها الشعر. فهي، من دون بقية الأنواع المسرحيّة، لا تحاكي الحياة العاديّة. والآ كان عليهم أن يحظّروا الشعر فيها، حتّى العاديّ منه، لأنّه ليس في الحياة اليوميّة. قلت إنّ إنشاء المأساة يجب أن يأخذ بروعة الإبهام، فيحاول أن يُظهر العاطفة بالصُّور أو يوحيها إيحاءً. قالت السيّدة ده ستال : « إذا حرّكت النفس عاطفة

قوية، فالمرء العاديّ نفسه يلجأ إلى الصُّور والاستعارات :
يستعين بالطبيعة الخارجيّة ليعبّر من نفسه عمّا لا يُعبّر عنه .
وهل المرسح غير « تعبّر عن عواطف قويّة » ؟

* * *

مفترضٌ في « المأساة » أن يكون موضوعها عريقاً في
القدم، يعطيه غبارُ السنين جلالاً. فأخذتُ موضوعي من
« العهد القديم »، واستخدمته للتعبير عن أمانى بلادي.

أمّا أشخاصي فقد تعمّدتها أميل إلى أشخاص كورناي.
ذلك أنّ الروائيّ الذي « صوّر الإنسان كما يجب أن يكون »
تظّل طريقته أجدى لبلادٍ تريد في بدء نهضتها أن توفر المثل
العليا. وإنّي لأجده خَطَلاً أن يبدأ المرسح عندنا بوصف
نفوس هذا العصر كما هي. ففي مثل هذا الوصف قطعُ
رجاء، وقُتوط من حياة شعبٍ يأمل أحراره منه أن يتطلّع إلى
الشمس.

* * *

أعطاني « سيفرُ القضاة » من « العهد القديم » — وقل
التاريخ — أن يفتاح رجلُ بطش ولدته لجلعاد امرأةً بغية. فإذا

كَبُرَ إِخْوَتَهُ، أَنْكَرُوا عَلَيْهِ الْأُخُوَّةَ وَطَرَدُوهُ. وَلَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا
مَتَى اجْتَنَحَهُمْ « بَنُو عَمُونَ » وَاسْتَبَوْهُمْ. وَمُقَابِلَ قَبُولِ يَفْتَاخَ
بِمُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ يُقَرَّرُ لَهُ أَهْلُهُ بِحَقُوقِهِ وَبِالْسيَادَةِ عَلَيْهِمْ. وَيَنْتَصِرُ
يَفْتَاخَ. لَكِنَّهُ يَكُونُ قَدْ نَذَرَ قَرِيبَانَ ظَفَرَ أَوَّلَ بَكْرِ تَخْرُجَ إِلَى
لِقَائِهِ. فَيَتَّفِقُ أَنْ تَكُونَ الْأُولَى بِنْتَهُ الْوَحِيدَةَ. وَيُعْطِيهَا شَهْرَيْنِ
تَبْكِي بِكُورَتَيْهَا عَلَى جَبَلِ جَلْعَادَ ثُمَّ يَنْقُذُ فِيهَا النَّذَرَ. وَيَصِيرُ
رِسْمًا عَنْدهُمْ أَنْ تَقُومَ الْعِذَارَى كُلَّ سَنَةٍ إِلَى جَبَلِ جَلْعَادَ
يَتَفَجَّعْنَ عَلَى بِنْتِ يَفْتَاخَ.

خَلَقْتُ أَنَا الرِّوَايَةَ هَكَذَا :

افْتَرَضْتُ أَنَّ يَفْتَاخَ عَلَى أَثَرِ طَرْدِهِ اسْتَبْدَلَ بِاسْمِهِ اسْمَ
جَلْعَادَ، وَكَتَمَ بِنْتَهُ الْأَمْرَ، فَرَبَّاهَا لَا تَعْرِفُ فِي وَالِدِهَا — جَلْعَادَ
هَذَا — إِلَّا رَجُلَ كَبِيرٍ وَأَعْمَالٍ شَهْمَةٍ، كَمَا رَبَّاهَا عَلَى كَرِهٍ
يَفْتَاخَ، حَرِيصًا إِذْنًا عَلَى تَرْبِيَّتِهَا تَجْهَلُ أَنَّ هَذَا الْيَفْتَاخَ هُوَ
وَالِدُهَا. وَكَانَتْ إِذَا اجْتَمَعَتْ بِأَتْرَابِهَا يَحْتَقِرْنَهُ وَذَكَرَهُ،
لَمْ تَتَوَانَ عَنْ مِشَارَكَتِهِنَّ هَذَا الْإِحْتِقَارَ. وَافْتَرَضْتُ أَنَّ أُمَّهُ
الْبَغْيَى انْتَهَتْ مَجْنُونَةٌ وَهِيَ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرٍ
تَرْعِجُهُ وَيَطْرُدُهَا. وَبَدَأَتْ الْمَأْسَاءَ عِنْدَ تَرَدُّدِ يَفْتَاخَ فِي شَأْنِ
دُخُولِ الْحَرْبِ : أَتَرَكَ بِلَادَهُ لِلْعَدُوِّ سَبِيَّةً ؟ أَمْ يَدْخُلُ الْمَعْرَكَةَ
فَيَشْتَهَرُ اسْمُهُ وَيُفْتَضِّحُ أَمْرَهُ عِنْدَ بِنْتِهِ ؟ فَكَانَتْ رُوحُ الرِّوَايَةِ

في « قلق » المشاهدين على بنت يفتاح « الآية » إذا عرفت
سرّ أبيها « الوضع »، وعلى يفتاح « المتكّم » إذا
« افتضح » أمره عندها.

الأشخاص

يفتاح

راحيل : بنت يفتاح

المجنونة : أم يفتاح، عاهرة من جلعاد

تامارا: خدنة لراحيل

يمثل المسرح تلّة من « طوب »، قرب جبل « جلعاد »

الحرية

جُرِّحَ على النور الهَوَانُ،
ومَاتَ معَه الجِنَانُ ؛
ولَاضَلُّعُ الأحرارِ أَبَادًا
صَغِيرَاتٍ حَسَانُ،
إِنْ يَسْتَبَدُّ بِهَا الزَّمَانُ،
يُغْنِ ثَوَرَتَهَا الزَّمَانُ.
لي، مثلَ غيري بالعُلى
المِثْنَانُ، مَرْمَى وَافْتِنَانُ ؛
أنا لا أَذِلُّ، وفي جبين
الشمس يبدو لي مكان !

الفصل الأول

مُضْرَبٌ إِلَى الْيَمِينِ ؛ مُحْرِقَةٌ
مُتَدَاعِيَةٌ إِلَى الْيَسَارِ، يَظْلِلُهَا شَجَرٌ
جَبَلِيٌّ.
الْإِلَّامُ عِنْدَ السَّحَرِ يُنَازِعُ شَيْئاً
فَشِئْئاً.

السُّكَّرُ الْأَوَّلُ

يفتاح ثمَّ المجنونة

يفتاح

أَيُّ رَيْبٍ، يَا رَبُّ، أَيُّ مَقَادِيرَ تَفَاذَنَ عَزَّتِي وَقِيَادِي ؟
أَنَا فِي حَيْرَةٍ، أَهَادِنِ دَهْرِي، وَأَهْزِ الْآلَامَ مَلَأَ فُؤَادِي،
أَنْكَرْتَنِي عَشِيرَتِي، وَرَمْتَنِي هَائِمًا فِي رِقْفَارِ «طُوبِ» الْجُحُومِ،
فَرُغُ مَجْدٍ، مَدْرَبٌ فِي الْمَعَالِي، كُنْتُ دُنْيَا، لَوْلَا مَذَلَّةُ أُمِّي.
أَنْكَرْتَنِي «جَلْعَاد» عَمْرِي، فَلَا تَذَكَّرْ بِطُشِي، لَوْلَا الْعَدُوُّ السَّابِي،
أَتَرَانِي مَجِيرَهَا مِنْ عِدَاهَا، وَأَنَا السِّلْوُ بَيْنَ ظُفْرِ وَنَابِ ؟
أَنَا سِرٌّ كَتَمْتُهُ عَنْ كِيَانِي، عَنْ أَحَبِّ الْبَنِينَ، عَنْ رَاحِيلَا،

إِنْ أُجِيبَ دَاعِي الْوَعْيِ يَشْعُرُ اسْمِي عِنْدَ بَنَتِي، فَالْتَقِيهَا ذَلِيلًا،
وَإِحْالَ الْأَسْبَاطِ تَهْتِفُ بِاسْمِي فِي غَدٍّ، وَابْنَتِي تُصَيِّمُ الْمَسَامِعَ.
قَذَفْتَنِي الْأَقْدَارُ دُمِيَّةَ لَاهٍ فَأَنَا حَائِرُ الْأُمَانِيِّ، ضَائِعُ
بَيْنَ أُمٍّ مَجْنُونَةٍ تَمْلَأُ الْبَيْدَ صَرَخًا، وَتَمْلَأُ الْأَمْسَ عَارًا،
وَابْنَةٍ صُنْعٍ مَا أُرِيدُ، تَرَدَّتْ بُغْضُ يَفْتَاكِ، فِي الْحَيَاةِ، شَعَارًا،
ذِكْرُهُ عِنْدَهَا جِرَاحٌ عَلَى الْقَوْلِ، وَتَجْدِيفَةٌ عَلَى وَجْهِ قَدَسٍ،
وَمَرُورُ اسْمِهِ عَلَى شَفَتَيْهَا غِيْمَةٌ مِنْ أَسَى عَلَى جَوْ عَرَسٍ !
يَلْتَفِتُ فَجَاءَ فَيَرَى أُمَّهُ بِشَعَرِ كَثٍّ، وَجَفُونٍ نَاتئةٍ، وَأَنْوَابٍ مَمْرَقَةٍ
أُمُّ !

المجنونة

يفتاك.

يفتاك

لَا أَنَا لَسْتُ يَفْتَاكِ. أَنَا لَابْنَتِي عِلَاءٌ وَنَوْرُ !

أَنَا ...

المجنونة

يفتاك.

يفتاك

لَا تُعِيدِي عَلَى أَسْمَاعِي اسْمِي، فَكُلْ مَا بِي يَثُورُ.

المجنونة

أين راحيل ؟ أنت تحجبها عني ؟! ولا كنتم بعد لا أَسْتارا،
كبرت والسؤال ينشقّ عن فيها، وتبدو الدّنيا لها أسراراً.
شئت أم لا، أنت ابن عاهرة!

يفتاح

أمي، حنانيك ! أقصيري في السّقالِ !
أنا أدري، إلى الصّميم، إلى إخفاءِ حالي عني، وإنكار حالي.

المجنونة

يشندّ عليها العارض

عبثاً تصعد التّلال المنيفات، وتجري تهرّباً في القضاة !
أُتعدّ السُّقوط من علّ، يا يفتاح، من مُرتقى ظنون الرائي ؟!

يفتاح

عاودتها روى الجنون.

المجنونة

مستطردة

أتبغي مسح وجه الأوضاع بالأوهام ؟
عود البنت رؤية الحاضر القفر، فلا تشرق الشمس الدّوامي.

يفتاح

بإشفاق

لو تعي قولها، وتعرف راحيلَ، وجوّاً عاشت له راحيلُ !

بترفق

طفلةٌ قلّتها الصّباحَ اذا هلّ، شموخٌ لها النّسيمُ العليلُ
مثلُ أبكارٍ ربّعها، تعشقُ المجد، وتزهو بالمحتدِ المعبودِ،
تلتقي، في الرّبيع، بعضَ سجاياها، وفي الأنبياء بعضَ الجدود.

بحسرة

أنا ربّيْتُها على كُره يفتاح، وربّيْتُها على الكُفر باسمي،
فأنا، عندها، ابنُ أكرم بيتٍ، باسم «جلعاد»، وابنُ أشرف أمٍّ،
أتراني أُوحي إليها بفرعٍ لطّخته أمّي بوصمة عارٍ؟!!

المجنونة

ترى راحيلَ فتنهّد إليها

هي راحيلُ في الخميّلة ...

يفتاح

يمنعها بتؤدة

خلّيها شعاعاً في جيّرة الأزهار !

المجنونة

غاضبة لمنعها رؤية حفيدتها
الضيء الضياء من ترهات نسجتها أنامل الإنسان؛
وغد البكر ليلة وفرة الرّجس، وجو مخضبّ بالهوان،
كذب طهرها ! ...

يفتاح

منتفضاً لإهانة بنته

أناثك، أمي !

المجنونة

كذب مثل محتدٍ براق.

يفتاح

أنت تعنين محتدي ؟ وله، لولا تردّيك، روعة الإشراف .
ولو انشقت الظواهر عني، لتراعى دمان طي جناني،
ولو البر بالأمومة يرضى، لاكتوى واحد بنار الثاني.

وكأنه قد ندم على إهانة أمه

عفو أمي، إن أجرؤ اليوم في القول !

المجنونة

وفي جرأة الذليل اتضاع !

يفتاح

بتكبر وثورة
ما أنا بالذليل !

المجنونة

ما أنت يفتاح ؟!

يفتاح

بتفجع وتحسر

بلى ! ولتهدّ تحتي البقاع !
مرّة في فمي الحياة، ودكناء المرامي في ناظري المكلوم،
وتكاد الشّمس تُظلم في وجهي، ويبكي عليّ طهر الغيوم !

المجنونة

يتغنّى بالطهر نذلّ شريد خلّفته جلعادُ إلف الضّواري ؟!

يفتاح

مهلّ أمّي ! وربّ ضارٍ من الوحش له عزّة النفوس الكبار !

المجنونة

إخفيض الرأس .

يفتاح

لأنكسار جبيني غضبةً مثلما لوجه الخيال ؛
إن ورثتُ الدَّم الذَّلِيل، فروحي في ضلوعي، لها الجبينُ
العالي !

المجنونة

حلَّ عن عِزَّةٍ.

يفتاح

مشيراً إلى وجه أمه

أَبَيْتُ إِبَائِي أَنْ أَرَاهُ إِلَّا مُحْيَاً أَعْرَا،
أَنْتِ أُمِّي، وَأَنْتِ سِرُّ عَذَابَاتِي، دَعِينِي أَبْنُكَ الْحَبَّ مُرًّا.

المجنونة

حُبُّكَ النَّذْلُ ...

يفتاح

بنفاد صبر

توجعيني ! وحبِّي ليسَ نذلاً إلا إذا يلقاكِ

وكأنه ندم

لا ! وأهواكِ كيف كنتِ.

المجنونة

وقد تقدّم بفتح يريد تقبيل يدها

تخيّب !

يفتاح

أنا أهواك.

المجنونة

دَعَّ

يفتاح

يكون قد ارتمى دونها، يرغمها على التراجع

أنا أهواك !

إذهبي.

المجنونة

غاضبة لطردها

أَنْتَ ؟ أَنْتَ يَفْتَا حُ ؟

يفتاح

خلّيني.

المجنونة

مولولة من الداخل

طريدُ الركبان من كلِّ ظعنٍ ؟
ثمرُ العار ! وُلد عاهرة كالليل ! ولدي أنا ! وتبرأ مني ؟

يفتاح

أيُّها الحفنة الرميم من الطيبة، والكدر من جراح أئيمه،
لا، وراحيل، ما تبرأت من وجه تهاوى عليه طيف الأمومة.

المشهد الثاني

يفتاح وحده

ربّ يكفيك ذلتي في حياة وفرة الصبر، وفرة الآلام،
أثرى يطلع الصّباح، ويفنى اليوم في غربة الزمان الدامي ؟

يلتفت إلى حيث مضت أمه

ذهبت تنشر الصُّراخ وجياعاً، وإخال احتضاره في ضلوعي،
ويكاد البعاد يحجبها عني، وتبقى برّاقة في دموعي ؛
تركتني إلف التأمّل في حالي، وفي طالعي الوجيع القروح،
ورمّني سحابة في فضاء التّيه، العوبة بكفّ الرّيح.

رَأَيْتُ مَجْنُونَةً لَهَا ! أُمُّ كَلَامِ الْوَحْيِ حَرْفًا حَرْفًا رَمَاهُ اللَّهُ ؟
وَالِإِيَّيَّ مَ الْكِتْمَانِ فِي أَمْرِ سَرٍّ بَدَأَتْ تَلْتَقِي عَلَيْهِ الشِّفَاهُ ؟
حَايِرَةٌ مُرَّةً تَهْدُمُ نَفْسِي، وَتَرِينِي الْحَيَاةَ حَرَّى الْكُلُومِ
أَيُّ هَوْلٍ غَدَاةَ تَعْرِفُ رَا حَيْلُ، وَأَيُّ ارْتِعَاشَةٍ فِي صَمِيمِي !
بَيْنَ خَطْبَيْنِ صَارَخْتَيْنِ بِصَدْرِي: ذُلُّ أَهْلِي، وَجَرْحُ آمَالِ بَنْتِي،
كَيْفَ أَحْيَا، وَكَيْفَ أَسْحَبُ رِجْلَيَّ عَلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ تَنْهَارُ تَحْتِي !
مُسْتَقَرَّ الرَّأْيِ

لَا وَأَمْضِي طَلْقًا وَوَجْهِي إِلَى الْأَحْرَارِ، أَقْضِي حَقَّ الْأَبَاةِ الْعَوَادِي،
إِنْ يُفْتِنِي الْفَرْغُ الْمَجْلِجِلُ كِبَرًا، لَا يَفْتِنِي الرَّدَى فِدَاءَ بِلَادِي.
فَتَرَانِي رَا حَيْلُ فِي النَّصْرِ، أَوْ فِي الْمَوْتِ، أَسْمَى مَنِّي وَلَمْ أَمُحْ ذَلِّي ؛
وَإِذَا يَذْكُرُونَ ذَلِّي لَدَيْهَا، تَلْتَقِيهِمْ بِرَايَةٍ أَوْ بِنَصْلِ !
يَحَاوِلُ أَخْذَ دَرْعِهِ عَنِ الْمَحْرِقَةِ فَلَا يَجِدُهُ.

الْمِسْحَدُ الثَّالِثُ

يَفْتَا ح، رَا حَيْلُ

رَا حَيْلُ

فَرْحَةٌ، تَحْمِلُ طَاقَةَ مِنَ الزَّهْرِ
إِلَى الْحَرْبِ، يَا أَبِي ؟

يفتاح
بل إلى النصر.

راحيل

هنيئاً لنا افتداء الديار !
أنا أهواك، يا أبي، قِبلَ الناسِ، عقيدَ الفوارس الأحرار.
أنا أهواك، حاملَ الرايِ سمحاءَ، ومستقبلَ الطعان سخياً،
بين لمع الحراب، بين المواضي، يخفق النصر من حواليك حياً.
تخلع المجد والهناء على جلعاد، فجراً مجرّ الأردن،
فيقولون في لقائك : « حرّ » ويقولون : « بنته »، وكفاني !

يفتاح

تعشقين العلى.

راحيل

وأعشقه في والد، مُطلعُ العلى من طُباهُ،
فهو مُعطي رُفرفاتي إلى المجد، ومغني عن على في سواه.
تبدأ الفاجعة تراءى على وجه يفتاح، ويتابع ذلك في كل من المشاهد
التي فيها يلتقي يفتاح ببنته.
عجب ما لوجهك أصفر وأنهدّ رواء ؟

يفتاح

راحيل، خُلي المفاخر.

راحيل

لِمَ يا والدي ؟ ونحن ...

يفتاح

كباقي الخلق .

راحيل

لا لا، ونحن أسمى مآثر ؛

نحن فرع الأمجاد. ليس «شكيم» في ذوينا، وليس «يفتاح» ...

يفتاح

يكفي !

لا تزيدني، راحيل، لا تتجني !

راحيل

متعجبة

أَيَّ ذَنْبٍ أَتَيْتُهُ؟ أَيَّ خَسْفٍ !

أنا عَرَضْتُ، عن قَلِي، بالدَّليْلين: شكيم، وِربِه يفتاحا:

مأث، ذكْرُه ظلامٌ؛ وحي، يجرَحُ الخاطرَ آسْمُه والصَّبَاحا.

يفتاح

لا تَضَلِّي، راحيل، في كَفِّ يفتاح أُماني الأحرار من جلعادا.

بطلٌ لا يَخْبُ في ملعب المجد سواه، إذا الفَخَّارُ تَنادى.

أذكرى الحرب، وأذكرى الذل، يا راحيل، «عمّون» في حمانا يجور،
عائت فينا: الربوع فقر، وأهلوها جباه زلّفى له ونُحور.
لا وليّ يقودنا ...

راحيل
لا وليّ؟!

يفتاح
غيرَ يفتاح.

راحيل
والذلّيلُ ذليلُ !

يفتاح
أقصّري في المقال! إن يمشِ يفتاح إلى الحرب، فاللهاتُ صليلُ،
والجباهُ الخنوعُ غضبةٌ مجدي، والبلادُ ارتعاشةُ شماء.

راحيل

بغضب
يا «لجلاءد»! يلجأون إلى النذل، فأين الأحرار؟ أين الإباء؟

تشير إلى أبيها
أين جلعادُ، فارسُ الظفر الزاهي، أبي، أين سيفك المسلولُ؟

يفتاح

كأنه يتحسّر

لست في الحرب قرّن يفتاح.

راحيل

ما قلت ؟ وأمساً قامت إليك السُّهول
في رجالٍ أكابرٍ مرّغوا الكبيرَ اتضاعاً على تراب الدّار ؛
بسمّة منك أرقصتهم فمأجوا طرباً يلتقون لمع انتصار ،
هتفوا فيك للوليّ المفدى ، والتفأك الشيوخ بالصّولجان ،
وإذا ازورّ عنه طرفك ، مادت بهم الأرض في ثياب الهوان .
ثقة فوقها اتكال على الله ! فهل ذاق مثلها يفتاح ؟

يفتاح

لا تقيسي به كمياً أبيتاً ، تخشع البيضُ دونه ، والرّماح .

راحيل

أنت أعلى سيفاً ، أراك صقيلاً سلّه الله مشرقاً في البريّة ،
بطلّ فيك من يشوع مُعيدِ الشّمس ، ليلاً ، بضربة علويّة ،
تقتل الزّند من تجهّم لبنان ، وتلهو بالموت حُمرُ بنانك ،
وتكاد الذّرى تطايب كَفّيك وتصغي لحّمحات حصانك ؛
أنت أعلى .

يفتاح
لا، بنت!

راحيل

بنفاد صبر

ما أنت جلعاد؟!

يفتاح
بلى، بنتٍ ولأقل هو بعدي

راحيل

أين منك الوضع؟

يفتاح

وحده

ربّي، كفاني!

راحيل

أين منك اللامكتسي بالمجد؟

ذُل يفتاح ...

يفتاح

بسطوة وقد نفذ صبره

بنت، هاتي مجني ونبالي والسيف.

تخرج راحيل

يا ويلاه !

أَيَّ خُطْبٍ إِنْ يَفْتَضِحَ لَكَ سَرِّي، يَا مَلَكًا يَفْتَا حُ كَانَ أَبَاهُ !
عُمَّرَ قَاتَمٌ يَمُرُّ وَلَا يَنْشَقُّ، قَبْلَ انْهْيَارِهِ، عَنْ هُنَاءٍ،
فِيذُلُّ ابْنَ آدَمَ بِيَدَيْهِ، لَا بِذَنْبِ الْأَجْدَادِ وَالْآبَاءِ ؟!

يحسّ وحشة الانفراد

أَيْنَ رَاحِيلُ؟ بَتَّ أَحْشَى انْفِرَادِي، وَأَرَى الْأَفْقَ مَسْحَةً مِنْ سَوَادٍ،
ثَقُلْتُ أَضْلَعِي عَلَى قَلْبِي الْكَاهِلَ، وَاهْرُورَتْ قَوَى أَجْلَادِي،
وَيَكَادُ الْجَثْمَانُ يَنْهَارُ عَنِّي، وَيَكَادُ الْهَوَاءُ يَأْبَى نَهْوَضِي،
أَيْنَ رَاحِيلُ أَرْتَمِي فِي يَدَيْهَا، وَقَعَةَ النَّسْرِ وَالْجَنَاحِ الْمَهِيضِ ؟
يَسْتَدُّ تَعْبًا إِلَى الْمَحْرِقَةِ

راحيل

وقد عادت بالسّلاح

والدي، ما اعتراك؟ رَعِشَةُ خَوْفٍ وَعَلَى كَفِّكَ انْتِصَارُ الْغَدَاةِ؟!

يفتاح

وقد استيقظ من ذهوله وآلامه

لا، وعينيك، لم أخف! وسواء وقع دنيا، عندي، ووقع حصاة.
وللى الملتقى.

يأخذ السلاح ويخرج

راحيل

على بركات الله مسراك، والتفاتُ سِهامِك !
تفتدي روحك البلادَ، إذا عزّت، ولم يكفِها افتدائُ حِسامِك.

المشعر الرابع

راحيل وحدها

كلُّ شيءٍ حولي تغَيَّرَ من عهدٍ، ونفسي في خيرةِ وظنونٍ،
وإذا التقي أبي فعلى حزنٍ وعهدي به ضحكُ الجبينِ .
أيُّ سرٍّ يحوطني بقنوطٍ، وأنا بعدُ، في ربيعِ الشباب ؟!
لم تمرَّ الأحلام في خاطري بعد، ولم تحظْ في الدُّجى بجوابي .
منعوني بالأمس لقا التي جُنّت تنادي باسمي، وتطلب خدري،
ورموني في عزلةٍ أجْدُ الأفواه همساً، والعينَ لفتةٍ سرّاً.

أغانٍ من الداخل

رجّعي، يا رياحُ،

هينماتِ الهناءِ ؛

وأفتحي باب السماءِ

للعذارى الملاحِ .

راحيل

متجهمّة الوجه

مُنشَداتُ! والناسُ في غمرة الدُّلّ، وسيفُ العُدّة في جلعاد؟!
مُنشَداتُ أم خالعاتُ على الأبطال روحاً رَدّ الجهادَ جهاد؟!

اغاني من الداخل
رجّعي، يا رياحُ،
زمزمتِ القنا،
وأجتنى طيبَ المُنَى
عن سيوفٍ صِباح.

راحيل

فرحة

نَعَمْ ناصبُ المُنَى، أحمر الإرعاد، يَنشَقُّ في رحابِ الفضاءِ،
لو يحولُ ارتعاشُهُ في صُدورِ الناسِ، شالتِ بِهِم إلى العلياءِ!

إلى المغنّيات

يا عذارى جلعادَ، غنّين بالسَّيفِ، وهجنَ الرُّبى، وهجنَ الصُّخورا،
وآمتشقنَ الرّجالَ من حُللِ الأطيافِ، وابعثنهم لهيباً ونورا.

تغنّي على النّغم نفسه

غنّ، يا جبلي،
بالأمانى السِّماحِ،

وَأَمْشِقْ أَحْلَى الرِّمَاحِ
لِيَدِ الْبَطْلِ .

...

فَارِسُ آمَنَّا
بِإِلْوَغِ الْأَمَلِ،
يُرْتَقِي أَسْمَى الْقُلُلِ،
يُرْقِصُ الزَّمَنَّا .

...

قُمْ بِنَا، يَا جَبَلُ،
نَحْتَفِي بِالشُّرُوقِ .
لَكَ لَوْ تَدْرِي حَقُوقُ
مِثْلَمَا لِلدُّوَلِ !

ستار

اللَّهُ طَوْرَةٌ

يا روعةَ القَدَمِ المُطَلَّةِ
خَلَلِ التَّرْفُعِ والمَذَلَّةِ،
سَيَّانِ أَرْقَصْتَ الزَّمَانَ
وَشَدَّتْ فَوْقَ يَدَيْكَ جَهْلُهُ؛
أَنَا دُونَ هَيْكَلِكَ الرَّفِيعِ
أَبْنُكَ الإِجْلَالِ كُلُّهُ.
جَرَّحْتَ آهَاتِي، وَأَلْقَاهَا
عَلَى شَفْتِي نَهْلُهُ؛
مَا شَتَّ كُونِي ! فَالْأُلُوهةُ
فِي وَشَاكِكَ مُسْتَظَلَّةُ !

الفصل الثاني

المسحدر الأول

راحيل ثم تamar

راحيل

ملعبَ النور، ملعبَ العطر، يا جلعاد، ها أنت قَدَّةٌ من ظلامٍ ؛
خَضِبتِ دُكْنَةَ جمالِ حواشيك، فَبَهَجُ الضُّحَى بِظِلِّكَ دَامَ !
لم يَجِئْ بعدُ مُنْبِئٌ عَنْ لُطَى الحَرْبِ، وَعَنْ قِرْنِ وَالِدِي فِي الطِّعَانِ
قِيلَ: إِنْ يَدْخُلِ الْوَقِيعَةُ يَفْتَحُ يَرْجَحُ جلعَادُ فِي الْمَيْدَانِ
وَإِذَا أَنْكَرُ انتصاراً عَلَى النَّذْلِ، فَلَا أَنْكَرُ الظُّرُوفِ الْعُجَابَا،
رَفَضَ الحَرْبَ، مِثْلَ جلعَادٍ، بِالْأَمْسِ، فَهَلْ يَلْتَوِي الدَّلِيلُ رَغَابَا؟
هِيَ تَامارُ، خِدْنَتِي، تَحْمِلُ الْأَنْبَاءَ بِكَرٍّ مِنَ الثِّقَاتِ النَّاسِ،
ذَكَرْتَ حَيْرَتِي فَجَاءَتْ، وَلَا بَدْءٌ، إِلَى عَزَلَتِي بِكُلِّ مَوَاسٍ.

تamar

بِشْرَنَا، أَخْتِ، بِشْرَنَا ! رَضِيَ الْيَفْتَا ح !

راحيل

جوزيتِ أَلْفَ بُشْرَى لبشرى !

تامار

صُبْحَ أَمْسٍ أُنْتَحَى. وما هي حَتَّى خاضها يُلَهَبَ البواسل طُرّاً
ما درينا إِلَّا مساءً، فقمنا في قرابين بَكْرٍ وصلاةٍ ؛
أُنْظِرِيها، جلعاد، قطعةَ نارٍ تتداني من مبدع الكائنات:
الحنايا معابدٌ وصلاةٌ، والأأيادي كَنَّارَةٌ ودفوفٌ،
وانظري الجوّ دفقةً من أغاني مسمَعُ الكون دونهنّ رهيفٌ ؛
وانظري الحُلَمَ...

راحيل

أَيَّ حُلَمٍ تَذَكَّرْتُ وجميعِ الألوانِ ملءَ جفوني ؟!
في منامي رأيت سيفَ دماءٍ ...

تامار

مقاطعةً

سيفُ يفتاح في بني عمّون ؛

فاطرَبي.

راحيل

لا طربتُ ! حلمي مخيفٌ يملأُ الصّدرَ رعبه والماقي،
فيه زهو البياض يرقص مِغناجاً على حُمرةِ الدّم المُمهراق:

كنتُ في الحلم طَلْقَةً الوجه والقلب، كورقاء في الرُّبى غَنَاء،
حسدتني الزُّهْرُ العُلَى، حسدتني المُنِيَّةُ البَكْرُ في هَوَى عذراء،
حين نوديتُ من علٍ أَنْ دَعَى جلعادَ، والنَّصر، واقبعي في الظَّلام.
فعصيتُ السَّمَاءَ — عفوك، ربي! — وإذا قِبَلْتِي بِرِيقِ حَسام،
وعصوْرٌ تدور حولي سِراعاً، فكأنَّ الزَّمانَ شَقَّ السُّتورا،
عاصفُ الرِّيحِ بات صوتَ صراخ، وسواقي «جلعاد» دمعاً غزيراً.

تامار

بخوف

أَيُّ حلمٍ، راحيل !

راحيل

ما زلتُ حيرى في رُؤاهُ على توقُّعِ خَطبٍ ؛
وأجسُّ المساء ملء جفوني، وعلى بسمتي الجريح، وقلبي !

تامار

حدَّقِي، أُخْتُ: في البعيدِ سيوفٌ لامعاتُ بين الغبارِ، وخيلٌ.

راحيل

وقد ازداد تشاؤمها

أتراهم فرسانَ عَمَّونَ في نصر، جَرى خلفهم من السَّبْيِ سَيْلٌ ؟
ملاؤا السَّهْلَ والرُّبى، فعلى جلعادِ ظِلٌّ من الدُّجَى والفناء،
لا رجالٌ تذود عن قدسنا، والنَّاسُ تمشي في الدُّلِّ مَشِيَّةَ شَاءِ.

يكون التَّشَاؤْمُ قد بلغ منها حدًّا قصيًّا.
يا صباحَ الدمار، أين غسولُ العار ينصبُّ من فجاج السَّماءِ!!
أين من ينثر النُّجوم صخوراً، ويكبِّب النيران في الأرجاءِ!
يترك الموت مفلتاً في البرايا، ويهدِّد الجبال فوق الجبالِ،
يعجُّن البیدَ بالبحارِ هُوولاً، عاصفاتٍ رياحُها بالزوالِ،
ويعيد الغمرَ القديمَ يعيد الليل بالويل زاحفاً والمنيةَ!
إن تخلَّتْ عَنَّا السما لا تعالت أو تجاغت على جمال البرية!

المستحدر الثاني

راحيل، تamar، المجنونة

المجنونة

عِشْرُونَ أَلْفَ أُسِيرٍ

راحيل

بحسرة

أَتُرَاهَا الْبُشْرَى ؟ ..

المجنونة

وَأَلْفُ قَتِيلٍ

راحيل

بغضب

حبذا لو قَضَوْا جميعاً.

المجنونة

قضاء علويّ !

راحيل

قضاء شعبٍ ذليلٍ !

المجنونة

ومئاتٌ من الخيول السَّنيَّاتِ، وعشرونَ وزنةً من نُصارٍ.

راحيل

لا ذكرتِ الأموال !

المجنونة

لِمَ لا ؟

تامار

ويفتاح ؟

راحيل

بحسرة وهزء

وحامي الحمى ؟ وحامي الدُّمارِ ؟!

المجنونة
بين لمع الحراب... بين الأسارى...

راحيل

مقاطعة

يا أذلَّ العُبدان في عَمَّونِ !
قدتْ بجلعادَ من مذلة هُونٍ أوجعتهم إلى مذلة هُونٍ !
رُحْتَ ...

المجنونة

راحيل ! ..

راحيل

رُحْتَ عبداً، وعبداً عدتْ ...

المجنونة

راحيل ! ..

راحيل

لو رَجَعْتَ قتيلا !

عدتْ حياً تجرّ القيدَ ...

المجنونة

قلتِ القيدَ ؟!

راحيل

يبقى ذاك الدليلُ ذليلاً !

المجنونة

ما تقولين؟ ما تقولين، راحيل؟ ويفتاح قبلةُ الأمصارِ،
أنزلَ العزَّ في الربوعِ، وخلَّاهَا انتصاراً يختال إثر انتصارٍ.

راحيل

ما تقولين، يا عجوزُ، انتصرنا؟ نَحْنُ؟!

المجنونة

نصرأ غنَّت به البيداءُ !

وكانَّ الفرح قد زاد في خيلها

كنتُ في الحرب كلَّ شيءٍ، وكان العِرْقُ مني يشاء ما لا يُشاءُ

تامار

لراحيل

من تكون العجوز ؟

راحيل

مجنونةٌ تهذي؛ دعيك، الجنونُ حرٌّ وبردٌ؟!

المجنونة

أنا قدتُ الرجال .. عِرْقِي .. وُلدي ... أنا أمُّ الحُسام والكُلِّ غِمْدُ

راحيل

يا شفاق
هاجت المرأة الشقية.
يسمع غناء من الداخل

تامار
لكن أتراني بما رَوّوا بُلبِلْتُ
العدارى في فرحة وغناء، آصَبْتُ الهدى أنا أم خَطِلْتُ ؟

راحيل

بحسرة
جَالٌ في خاطري انتصارٌ، فأمسى هَذياناً مُراً على هَذيانٍ ؛
أملٌ أَشْرَقَتْ جوانبُه، وانشقَّ عند استقباله عن هَوانٍ.

المجنونة

ممسكة براحيل وقد أوشكت أن تخرج
أين تمضين، يا ابنة الظافر الغالي؟؟

راحيل

دعيني، واخلي معالي داري.

المجنونة

تطرديني!؟

راحيل

بإشفاقٍ وندم

طردتها، وبصدري بعض ميل لها، وبعض وقارٍ.

المشهد الثالث

المجنونة وحدها

سكوت طويل تسند المرسح في خلاله أغاني تجيء من بعيد. وفجأة
تلتفت المجنونة الى الداخل فرحة، وكأنَّ العارض قد خفت وطأته
قرب الظافرون من منشدات النصر، يجري جلعادُ فيهم حُبوراً،
مائجُ الاخضرار في الرّونق الطلق كأنَّ زاده الرجال حضوراً.
خلعوا فوقه البطولة أبراداً، وشكُّوا الطُّبى عليه نجوماً،
أيُّ قرنٍ أمامهم يعتلي المهر المُجلّي، ويستطير الغيوماً.
فارسٌ قدَّه المضاء من الشَّم الرواسي، والشرع الأسياف،
قربي منه، قربي منه، راحيل، وبثي لقياه طيب القوافي.
يسمع غناء فتاة غريبة، فتقابه المجنونة وكأنَّ العارض قد عاودها
وأزيحي عن دربه قينةً دكناء تشدوه نغمةً دكناء،
الغناء الغناء عصفه إرعاد، وأشباح مائم تتناهى،
صرخات غريبة توجع الصُّبح، وجهش على السنى، واحتضار،

أَيْنَ راحيل تملأ الأفق تحناناً فيَعْوى على يديها النهار؟
قدّمتها عذراء قسراً، وألقتها أمام الرّيان، بين الدّفوفِ.

يرتفع صوت راحيل، فتعود المجنونة إلى هدوئها
أنشديه، راحيل، أشجى من الحبّ، وأسمى من اصطكاك السيوفِ،
وابعثي اللحن رافلاً، واملئيه بحفيف الجوانح البيضاء،
في أناشيدك الفتية شيء من خضاب الأسي، ولون الهناء.

بدهشة، وقد عاودها العارض
ما دهى موكب العلى؟ أجفل الفارس، أم مادت الرّبي بالجواد؟
أمر الناس بالرجوع وألوى كاسف الوجه، واهي الأجلاذ.
مستضام، ترجل الآن، وانهاال على المنشدات يصرخ ذعرا.
هربت منه لؤلؤات بلادي، غير راحيل، فهي تهتف بشراً.
وهو ساج، يُلوي عليها وتُلوي: دفقة من سنّى على لبنان،
أيّ سرّ في قلبه يترك الصبح مريضاً في غمرة الأحزان؟
فالروابي مثل ازورارٍ عن الهدى، ومثل اختلاجةٍ وانتهاء،
والهدوء الرحيب، والقيظ والنارُ انهيارُ الفضاء تلو الفضاء.

بعد سكوت وتأمّل
لَمْ تُرى الظافر المُجلبب بالقوّة، يبدو مجرّحاً بالدّهول،
يمسح الدّمع خفيةً عن عيون الناس، عن نفسه، وعن راحيل!

سكوت طويل، أغانٍ مُبهمة تجيء من بعيد. تقعد المجنونة دون
تعمّد في ظلّ المحرقة بحيث لا يراها الدّاخلان

المشهد الرابع

المجنونة، يفتاح، راحيل

راحيل

هات، يا والدي، عن الحرب، فالدمعُ بعينيك ربيّة في انتصارك،
والتقاء الحسان بالبسمة الحرّى دليلُ انتحابة في قرارك،
أتراها هزيمة؟!

يفتاح

لا، وراحيل، ويفتاح في انتصار فؤد :
أنزل العزّ بيننا، وكسانا بُرد مجدٍ رحبٍ على برد مجدٍ،
فجرُ نصرٍ يحيا على الأعصر الغرّ، وتشدو جلاله البيداء؛
عاد يفتاحُ بالغنائم والأسرى كأنّ للعلّى هو اللألاءُ.
ضرب الضربة السخية في عمّون، فانهّد عزّها بحسامه،
حصد الهام، فالتلال تجلّلن بهامٍ وقفٍ على أقدامه.
لقي الجيشُ في «عروعر» صباحاً، ينزل الرعبُ دفقه، والظلاما،
تنزّى الهِمّات عن جانبيه، فيخال التهديد منه جِماما،

لا انتهاءً له، ولا وَهْنٌ يُضْرَبُ منه، فنبداً الهيجاءُ.
وتلوتُ رجالنا مضضَ الحيرانِ لاقته فجأةً نجلاءُ؛
لم يُطَقْها يفتاحُ وقفَةً جبنٍ؛ وعلا صوتهُ يُصمُّ الرياحا،
أمر القوم بالهجوم، وبالموت، فأدمى السَّنى، وأدمى الصَّباحا،
كم نفوس تَنَاثَرَتْ والعوالي، وجسوم تعانقت المواضي،
خطبةُ السَّيف خطبة الحقِّ، والكاسي ثياب الدِّماء كاسي البياض.
صخبُ الحاملين ملء الصَّحارى، ونزاع الفرسان ملء البرايا،
والتلال الدِّكاء من جثث الأبطال، والأفق من لهاث الضَّحايا.
يتهادى يفتاحُ في مطلع الجيش، على عِزَّة الأبي الظَّافر؛
قيل: مستقيلٌ، وقيل: شجاعٌ عشقته، فهادنته البواترُ.
يتحاشى عن الجبان، ويجري عارضاً صدره على المقدام،
فإذا يلتقيه في فجأة الطالب، يرمي بنفسه للحسام.
وتردَّى النهار بالدم فانزاح، ووافى المساء قبل المساء؛
ورأى الناسُ عمرهم مثقل الخطو، كسولاً إلى لقاء القضاء؛
فتنادى عصفُ المنيَّة فيهم، تتجافى منه الرُّبى والسُّهول،
وإذا فجعة الحراب فناءً، يتلوَّى على العدى، ويميلُ؛
وإذا دفقةٌ من البدر تجلو أكمات الأحياء والأموات،
عرف الناسُ أيَّ حظٍّ أصابوا، فإذا السَّيف في ظهور العُدَّة.
وسرى الفتحُ من «عروعر»، يبغي حدَّ «مئيّت» والقرى العشرين،
وعلى رقصة السَّنى والأغاني داس يفتاحُ في بني عمُّونا.

راحيل

طبت، كَثَرَتِي. تَغْنِي تَغْنِي! واصع، يا كون، واطربي، يا سماء!
وتباهي بها بطولة قوم، هم جبين إلى العلى وضاء!
واملاي الأرض باسم ربك مجداً، باسم جلعاد، زيد مجداً أثيلاً،
واقطفي الشهب للذي رأسه فوق، وصوغي لشعره الاكليلا!
تلنفت إلى الداخل كأنها تناجي يفتاح، بينما يفتاح إلى جنبها يكظم
دموعه وآلامه

يا بريق الآمال، يا جانبي المجد، رعاك الجلال من لبنان،
واشرأبت زرق النجوم تحييك بشتى الأضواء والألوان.
يا صلاة الرجوع لله بعد الكفر، بعد المحلولكات الخطوب،
ذكرتك العذراء في صفوة البال، وفي هجعة بحضن الحبيب.
عفو أردانك النقية، يا يفتاح، عفو الرمال تحت خطاك!
أنا جدفت، من غروري، على القدس، غداة اقتربت من ذكراكا.

يفتاح

عدت، بنتي، إلى الصواب، وألفيت، ليفتاح جودة أخت نصل

راحيل

جودة؟ لا. وليتني أعرف الظافر في مثل والدي طيب أصل

يفتاح

تظلمين ليفتاح، راحيل.

راحيل

لم أَظْلِمَ. وَحَقُّ تَكْبُرِي وَاعْتَزَازِي !

تشير إلى أبيها، وكأنما تذكره بالكبر الذي ربّاهَا عليه

وَأَبِي بَشْنِي النَّيَّاسَمَ مِنْ رَيْهِ الرَّوَاسِي، وَمِنْ شَمْوُخِ الْبَازِ.
عَشْتُ فِي قَرْبِهِ، يَتِيمَةً أُمِّ، فَأَنَا مِنْهُ دَنِيَوَاتُ الْهَنَاءِ؛
مَا لَهُ مُنِيَّةٌ سِوَايَ، وَلَا لَهْوٌ؛ يَرِينِي فِي الْأَرْضِ ظِلُّ السَّمَاءِ.
كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي عِلَاءٌ وَكِبَرٌ، كُلُّ شَيْءٍ مَلُونٌ بِالْكَمَالِ.
مَا قَرَأْتُ التَّارِيخَ إِلَّا جَلِيلًا، فِي فَمٍ يَبْعَثُ الْكَلَامَ لَأَلِي؛
أَوْ رَأَيْتُ الْأَعْمَالَ إِلَّا كِبَارًا، مِنْ يَدِ خَصْبَةِ النَّدَى وَالسَّمَاحِ؛
وَكِتَابِي أَبِي، أَرَى فِيهِ مِنْ مُوسَى، كَلِيمِ الْعُلَى، وَمَنْ يَفْتَاكِ.
وَإِذَا نَلْتَقِي عَلَى ذِكْرِ أُمِّي، فَفَضَاءٌ مَغْرُورِقٌ بِالشُّعَاعِ،
أَوْ نَغْنِي بِمَكْرُمَاتِ جَدُودِي، فَرِبَاغٌ غَرَاءُ إِثَرِ رَبَاعِ.
خَلْنِي، خَلْنِي، عَلَى ذِكْرِ يَفْتَاكِ، أَرَى فِيكَ أَطِيبَ النَّاسِ ذِكْرًا؛
وَإِذَا تَشَرَّفُ الْبِلَادُ بِيَفْتَاكِ وَجَلْعَادِ، تَلْتَقِيكَ الْأَبْرَا.
هَاتِ خَبْرَ عَنِ رَوْعَةِ الْحَرْبِ وَالتَّنَصُّرِ، وَعَنْ بُسْلٍ لَدَيْكَ أَجَادُوا.

يفتاح

كُلُّهُمْ بِاسْلَ.

راحيل

وَأَيُّ الرِّجَالِ الْعُرِّ جَلِّي ؟ يَفْتَاكِ أَمْ جَلْعَادُ ؟

يفتاح

وحده
ربّ !

راحيل

قلّها بلا اتّضاع !

يفتاح

بعد تحير

كلانا.

راحيل

لا ! وأنت المجرّر المجدّد أصلاً ؛
هو في الطّعن عدلٌ ماأنت، لكنّ لك أصلٌ يُرخي على الشّمس ظلاً.

يفتاح

ما تقولين؟ بعد لألأة النّصر، وبعد ارتعاشة الرّايات،
بعد خوض الطّعان مرتفع الرّأس، وخلع العلّى على السّاحات،
بعد نسج الشّمس برّدة مجدّد، لا ترّين اليفتاح غير وضيع؟!

راحيل

هو ما قلت، يا أبي،

يفتاح

وجلاء الفتح، يا بنت، عن غوالي الربوع؛
وانتِشال الأطفال من غمرة الموت، ومنع المخدرات النساء،
وجماء الأطهار فينا العذارى، من فجور الوحاح الأعداء،
والفعال العرّ العلى، من أتاها غير يفتاح ؟

راحيل

انت، والامجاد.

يفتاح

ما انا والرجال الا دمي خرس؛ ولولا يفتاح، صمّ جماد.
بث فينا العلى، وقاذ الشتات التزر منّا، مجرحاً، ملتاعاً،
فاذا نحن نفتفي إثر يفتاح فتمضي إلى الخيال سراعاً.
نحن، لولا اليفتاح ...

راحيل

تقاطعه بمثل الغضب والعتاب

يكفي ! تراءى لك سمح الطعان سمح الأصل؛
امتدح طعنة الموفق، يا جلعاد، لا تمتدح ذراع الأذل.

يفتاح

وحده

رب !

راحيل

حاربت جنبه، فغزا قلبك بالوفّر من جميل الطبعان،
ونسيت الأصل الدليل؟!

يفتاح

أناة ...

راحيل

مستطردة

واشتريت العلى له بالسنان !!؟

والدي، يا سليل مجدٍ عريق، لي رجاءٌ إلى هواك، وحيدٌ:
لا تجد في الفعّال مغفرة الذلّ، فلا يُشترى أبٌ وجدودٌ.
أنا أخشى مَغْبَةً وَفَرَةً الشَّرِّ، إذا يَمْحِي الخنى في الوليدِ؛
يطهّر المرءُ وهو يرعى رؤى اللعن بثغر الحفيد قبل الحفيدِ.
لا أطيع امتداحَ يفتاح من فيك، فدعني أمضي.

تخرج

المشعر الخامس

يفتاح، المجنونة

يفتاح

حنائك ! ربّي،
أيّ كاسٍ تذيّقني، يوم نصري، من دمائي ومن حشاشة قلبي؟
أنا كفّرت عن خطيئة آبائي بعمرٍ من الأسى والعذاب،
واعترلت الدنيا اغتفاراً، وضحيّت هنائي، تقرّباً، وشبابي !
ونذرت الثمين والسّمح قربانَ ظهوري على العدّي، وثاري،
وتماديت أنذر الغادة العذراء أولى المغنّيات انتصاري،
وإذا التقي جموع العذارى، تتراءى راحيلُ نصبٍ جفوني ؛
وأشبح الأنظار عنها فألقى، ما تلفّت، وجهها يلتقيني ؛
وسأقضي، يا ربّ، بعدُ على بنتي، فيا ربّ، هل كفتك المنيّة؟!

المجنونة

تكون قد تركت مكانها والنقت يفتاح وجهاً لوجه
ويلك، يفتاح، ما يُراود عينيك ؟

يفتاح

هارباً

دعيني، نذرتُ بنتي ضحيّة !

الشَّهْرُ السَّادِسُ

المجنونة، ثم راحيل

المجنونة

أَيَّ نَذْرٍ يَفْتَا ح، لَا شَرْعَةً اللَّهُ رَأَتْهُ، وَلَا بَلَاءُ السِّنِينَ !
أَنَا مَجْنُونَةٌ، وَأَنْتَ عَلَى رَشْدٍ ! فَخُذْ مِنْ فَمِي رِشَادَ الْجَنُونِ .

تَدْخُلُ رَاحِيلُ فَرْتَمِي الْمَجْنُونَةَ دُونَهَا ضَارِعَةً
أَهْجَرِي، بِنْتِ، مُضْرِبَ الظَّافِرِ الدَّامِي، وَخَلِّي مَطَارِفَ الْأَرْجَوَانِ،
وَتَعَالَى إِلَى حَيَاةِ الْبَرَارِيِّ، فَهِيَ أَبْهَى مِنْ بَهْجَةِ الصُّوُلْجَانِ .

راحيل

مَتَذَكَّرَةُ الْحَلَمِ

صَوْتُ حَلْمِي !

المجنونة

تَعْجَلِي، فَهَنَاءُ الْعَمْرِ مَرْمَى فَرَّاشَةٍ مِنْ سَرَاجِ !

راحيل

تَعُودُ إِلَى نَفْسِهَا وَكَأَنَّهَا تَهْزَأُ مِنَ الْمَجْنُونَةِ
أَهْجَرُ الْبَيْتِ مِثْلَ مَجْنُونَةٍ ؟

المجنونة

لَا، مِثْلَ مَنْ يَتَّقِي جَنُونَ الشَّاجِ !

أُسْرِعِي، بِنْتِ .

راحيل
في حنانك شيء من أبي في تعطفٍ وتمنٍ .
المجنونة
في تمنيه ؟ في تعطفه ؟ لا .

راحيل
بعجب
أنت تأبين ؟
المجنونة
بحسرة واعتزاز
كل ما فيه مني .

راحيل
بقلق
من تكونين ؟ يا عجوز ؟
المجنونة
دعيني واهربي قبلما يفوت الأوان .

راحيل
وقد تزايد قلقها
أنبئني من أنت أتبعك .

المجنونة

خلّيني وشأني فكل ما بي هوانُ !

راحيل

نهزُّها فاقدة الصبر

هل تقولين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني فأزِيد الضنى بقلبٍ حزينٍ ،
أهربي .

راحيل

إن كشفتِ سركِ .

المجنونة

لا ! لا !

راحيل

لِمَ تأبئين ؟

المجنونة

لم أعدُ في جنوني .

ترى يفتاح مقبلاً

قَرُبَ السَّيْفُ ، فَاتَّقِيَ السَّيْفَ ، راحيل !

راحيل

بحيرة

أبي !

الشَّهَد السَّابِع

المجنونة، يفتاح

يفتاح

يكون قد رأى أمه وبنته معاً

مَنْ أرى ؟ خباءك، بنتي.

المجنونة

وقد حَوَّلَتْ تَصَرُّعَاتِهَا إِلَى يِفْتَاحَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَتْ رَاحِيلُ
رَحْمَةً بِالْجَمَالِ، بِالرَّوْنِقِ الضَّاحِي، بِزَهْرِ بَكْرِ الْجَمَالِ وَنَبْتِ !
رَحْمَةً بِالشَّبَابِ ! ...

يفتاح

مَنْ قَالَ ؟ ! ...

المجنونة

يفتاح ...

يفتاح
إلهي ! أسمع أسمي داري ؟!
إخفِضي الصَّوتَ.

المجنونة
عَفَوَ نصركَ، يَفْتَأُحُ ..

يفتاح
آخفِضي الصَّوتَ عن نسيمٍ سارٍ
كلُّ شيءٍ في دار راحيلَ كَبُرَ، في ثراها، في المنحنى، في التَّلَوِي،
إخفِضي الصَّوتَ يُجْفِلُ المربعَ الذَّاكِي براحيلَ، أو هوى راحيلَ.

الشَّهَرُ السَّامِي

يفتاح، المجنونة، راحيل

راحيل
يكون قد تقدَّمتها جلبة من الداخل
والدي، والدي، أَنَاكَ بالنَّذر، ورُحماك بالعذارى الحسانِ !

يفتاح
سمِعْتُنَا ؟!

راحيل
رحماك، جلعاذ.

يفتاح

وحده

جلعاذ؟

لراحيل

اطلبي، إن أردته، صولجاني.

راحيل

صولجان؟! أبي، بجلعاذ أبكار حسان نذرت منهن بكرا،
أغف عنها.

يفتاح

ربي !

راحيل

وأبكار جلعاذ مروج الربيع نوراً وزهرا،
فتصور منهن مغناج خصر تنلوي على لظى النيران،
يلفح الوهج جبهة من محياها، وثغراً لم تلقه شفتان؛
ويحرر اللهب زرقه عينيها، فتغضي عن عالم في أنهيار؛
ويغيم الخدان عن سحر رجب تراءى عرض اللظى والشرار؛
ويهيج الصدر المهدم أشلاء الأمانى ملوثة الأعناق،

مثلُ دنيا تموت، مثلُ خيالٍ يَمحي عن معالم الأحداق؛
فالعصور الطهورُ ير كضنٍ إعراضاً عن الكون ضاق بالإثم صدرا.
ويغضُ الضياءُ عمداً، ويكي الزهرُ ...

يفتاح

بنفاد صبر، وقد تصوّر بنته نفسها على المحرقة بهذا الشكل الذي تصفه
هي دون أن تعلم

راحيل، يا ربيعي الأغرا،
يا نشيدَ الأضواء، يا زُرقةَ الحلم، فداكِ السنَى بسيف أبيك،
وقداكِ النصرُ المجلجل في الدنيا، ورجعُ الصلاة والتبريك؛
أنتِ نذري !

المجنونة

يفتاح !

يفتاح

أمّي !

راحيل

باستفهام، فحسرة، بعد أن تنقل طرفها من يفتاح إلى المجنونة فتفهم كل شيء
تُرى !؟ ...

المجنونة

يفتاح، رُدُّ الظلام فوق الظلام،
واطلو من نصرك البرود السنيات، وزف الدنيا سيوفاً دوامي،
واملا الأرض والمعالم شراً، وابعث الريح بين جهشٍ وجرح،
وتحدّ العلى، ولا تغمس الكف وتنهّد في دمٍ منك سمح!
تمضي مولولة

راحيل

والدي، ما شجا فؤادي، عند الموت، غير النداء: «يا يفتاح»
لنفسها
يا مُنَايَ البيضاء، كيف تموتين ويبقى هوى ويبقى صباح؟!
أعشقت الخريف، والكون صحوً علويّ، والريح عطرٌ تحفوق،
أم تصبّك نثرُ عقدك في النور، فيكفي غوى صباك الشروق،
وإذا في الأثير، منك جنازات، وغصّات آهةٍ وجراح!

اغاني من الداخل بعيدة :

رجّعي، يا رياح،

هينمات الهناء،

وافتحني باب السماء

للعذارى الملاح !

راحيل

العذارى يُنشدن، والأكم الخضراء تزهر بهنّ، والأدواح،
والأمانى بيضٌ على قُبب «الكرمل» والسَّهل هازجٌ بالعذارى،
وأنا ألتقي الحياة سواداً، وجلال الحياة دمعاً وعارا!
والدي، أعطني، حنانك، شهرين أناجي، مداهما، آمالي ...

يفتاح

لكِ ما شئتِه !

راحيل

مستطردة

وأقطفُ عمري زهراً بيضاً كوجهِ خيالي !

ستار

المجلد ١٥

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٣٧

الطبعة الثالثة مصححة ١٩٩١

إلى Q.A.

في الشِّعر

أَيْنَا، في حبه الأول — ما اتفق له أن ردّد بين
يَدَيِ حسنائه : « هل عند الوردّة، يا حبيبتِي، خبرٌ عن
عطرها ؟ هل تَعِي الوردّة أَنَّها الطريفةُ ذات السّدا
المُسكِر ؟ »

المرأة من جمالها كالوردّة من أريجها ؟ لربّما بتقريب
كهذا نكون قلنا ما ماهيّة وَعَي من ماهيّة لاوعي.

الوردّة لا تدرك أَنَّها الوردّة. وهو، على ما يقول العاشق،
موقفُ الحسناء من حسنّها.

(١) الشّعراء والعلماء، الذين استلهمت وإلهم استندت في دعم هذه الخواطر،
أكثر من أن يذكروا.

روح مناجاته اذن أنّ فتاته لو درت ما جمالها لشاركت
الناس عبادة نفسها!..

بيد أنّ الوردة هي، على الحقيقة، غير واعية. أما المرأة
فشأنها آخر : جمالها، بعض صفاتها، سر وجودها، كلّ
ذلك قد يفوت منها قوى الوعي، ولكن يستحيل أن يفوت
قوى اللاوعي.

اللاوعي في الإنسان طاقةٌ ولا كأحد الوعي.

لا يستغرب هذا سوى اللامتمرس بأشياء العقل. أما
من كتب أو خطب أو تحدّث، ولو مرة، حديثاً أحاذاً
فلا يجهلها حقيقةً راهنة. إنّنا، على قول شارل بالي، إذ
نتكلّم فإنّما نتكلّم بشكل لاواعٍ، لا نفكر بألوف
التصورات يسلسلها فكرنا في كل جملة نباشر : بشكل
لاواعٍ ننتقي الألفاظ التي هي أقرب إلى الفهم أو أفعل
في الذهن، بشكل لاواعٍ ننحت لنا أحياناً صيغاً جديدة
ما كانت يوماً في اللغة وما ندري أي أصول مكتنفة
بالسرّ راحت توحىها إلينا في تلك الهنيهة، بل بشكل
لاواعٍ يتمّ أخيراً عمل الفاهم. وبقدر ما تكون فكرتنا
لاوعية تكون أسرع إلى فقهه وتكون أدقّ وأعمق. وعلى

العكس، بقدر ما تغدو فكرتنا مدروسة تحليلية تغدو متعثرة دون فهم الفاهمين. وشُدَّ ما نرى لفظة أفلتت منا إفلاتاً، أو كان تلفظنا بها سبب دهشتنا نحن، تلج أفهام السوى بسهولة لا تعرفها جملة منطقية واضحة. ويخيّل إليّ أنّ الفكرة اللاواعية وحدها تستهوي الناس. وما من شكّ في أنّ اللاوعي أفعل وسائل التفاهم.

وفي تحرّيات جول كومباريو أنّ الموسيقى، عند الموسيقيّ الحقّ، أوضح من الكلام. وما كان الكلام إلّا ليزيدها إبهاماً. وهو يزعم أنّا إذ « نفكر دونما مفهوم » فإنّما نفعل لا لتتخلّى عن الأشياء التي يمثّلها مفهومها بل، بالعكس، لنستولي عليها بأقوى.

عجيبة قوّة اللاوعي، سواءً في الكلام أو في الفهم. وإنّها كذلك حتّى في الأغراض التي تبدو أدعى إلى استخدام العقل.

أرى أنّ اللاوعي هو رأس حالات الشّعر. ورأس حالات النثر الوعي.

قبل إبداع الشّعر، بل في ذروة إبداعه، لا أكون واعياً في ذاتي ولا واحداً من الأشياء الواضحة. والثابت

(ويمكن الاستناد في ذلك إلى العالم هنري بوانكاريه)
أن لا أثر فكرياً ذا قيمة، رياضياً كان أم سياسياً، موسيقياً
أم شعرياً، تحقق في الضوء.

أما كتابتي النثر فتكون نتيجة لما عقلته سابقاً، نتيجة
لما استنجدته من فكر وتصوّر وعاطفة، ثم بتمام وعي
أظهرته للناس متوسلاً اللغة.

النثر فكر، والفكرة نعيمها، وهو صور والصورة نعيمها،
وهو عواطف والعاطفة نعيمها. عناصر النثر جميعاً عناصر
وعى. النثر في طبيعته وعى بوعى. أما الشعر فلا.

الشاعر في ذروة إبداعه لا تخامره أفكار، صور أو
عواطف، وهو إن خامره شيء منها أفسد عليه العمل.
عناصر الوعي (ولم أستثن العاطفة، صنم النظامين
الأفذاذ...) لا تلعب في الشعر أي دور.

لأواجه، ولو لمأماً، منشأ النثر.

* * *

لا مناص من الإقرار بأن الوعي هو نثر اللاوعي. فالفكرة
إذن، شأن الصورة والعاطفة، نثر الحالة الشعرية، تعبير
عنها، باهت مخفف، يدينها من أذهان الذواقة المحدود.

نتناول مجلّة ونقرأ :
... أَحَبُّكَ مِنْكَسِرَ الطرف، خوف
انفلاتك من نظري طامع،

وَأَمْسَحُ مِنْ عَبْرَتِي فِي الْخَفَاءِ
فَلَا تَقْعِينِ عَلَى دَامِع.

وَتَغْرِكُ لِي فُلَّةَ الْفُلِّ بَاتَتْ
يَتِيمَةً ذَاكَ الشَّدَا الْمَاتِع،

فَذِكْرُ الرَّبِيعِ عَلَى سَمْعِهَا
حَرَامٌ وَذِكْرُ الْهَوَى الرَّاجِع !

ونقلب الصفحة فإذا الشرح...

وما الفرق ؟ الأبيات غمرتنا بحالة سِرِّيَّة الماهيَّة، لكنّها
تركّتنا غيرَ ما كنّا وفوق ما كنّا، ردّتنا أكثرَ تآلفاً مع
حقائق في الكون ثَبَّتة، أمّا شرحها فلم يَرُدُّنا إلّا معرفة
بها، أعطانا علماً بحالة الشاعر، لم يعطينا الحالة.

الشعر ؟ إنّه لِسِرَاةِ العقل، لِطَبَقَةِ مصطفاة، باستطاعتها
التذوّق. أمّا النشر فللتلامذة — وقد يكونون خارج
المدارس...

الفرق بين الشعر والنثر ؟ إنّه لكالفرق بين سماع
المعزوفة وقراءتها.

* * *

ما تُرى، يحدو بي حيناً إلى كتابة النثر وآخر إلى
إطلاع الشعر ؟

إنّ أنا باشرتُ العمل وكانت تهدر فيّ أشياء بوسع
قوى النفس أن تصل إليها، إن كانت لي أفكار وصور
وعواطف، وجدّنتي تلقائياً أَمْلاً الصّفحة تلو الصّفحة نثراً.
أمّا إن كان في داخلي ما هو فوق طاقة تلك القوى،
إن كانت نفسي ذاتها في حالة فوق الوصف، خالصة،
لا تشوبها فكرة أو صورة أو عاطفة، حالة تُمكن ذاتها
من وعي ذاتها أعمق وأغنى، فأروح تلقائياً أكوّب بياض
أوراقِي بالشعر.

الشعر من لاوعي والنثر من وعي.

* * *

سؤال : ما يفرّق الشعر عن سائر الفنون ؟
قبل التعبير عنه، أي عندما يكون لا يزال في ذات

الخلق لم يمتزج بعدُ بوسائل التعبير، يمكن الشعر وحده، أن يشمل الموسيقى، التصوير، الرقص، العمارة، وما إليها من جمال وراءه يدُ إنسان. قبل التعبير : حالة من اللاوعي واحدة، لا تبدل إلا إذا اتخذت شكلاً. تكون الموسيقى إذ نستخدم في إظهار الشعر نغماً، والعمارة إذ نستعمل رصف حجارة، والرقص إذ نتوسل إعماراً بجسم بشري هذه المرة.

الفنون ؟ لا فنون قبل التعبير.

* * *

أحاول التغلغل إلى جوهر الشعر، إلى مادته إن استجزت الكلمة.

فيما أنا أبداع أكون لاواعياً، فما أقدر إذن أن أعترف بما جرى لي. سوى أن نظرة على حالتي قبل الإبداع وبعده قد ترسل ضوءاً على السرّ.

« قبل » الإبداع و « بعد »ه ؟ ولكن متى تكون فترة الإبداع، وإلى كم تطول ؟ هل تبدأ من أول كلمة من مطلع القصيدة ولا تنتهي إلا بروي الختام ؟ لا، وفترة

العطاء الجَلَل، فترة اللاوعي هذه، نادراً ما تطول إلى أكثر من أبيات. سريعة العطب هي، تعمّر، في غالب ما تعمّر، مدى بيت أو فلذة من بيت.

إنها كالحالات النفسية الخالصة تكاد لا تكون حتّى تقطّعها فكرة، صورة، عاطفة. فإذا الشاعر (ومن هنا عناصر النثر في القصيدة، كلّ قصيدة) وجهاً لوجه أمام الوعي. الملهَم يواصل تحويراً وتبديلاً، ولربّما يستأنف استئنافاً، حتّى يجد اللَّقِيَّة، أيّ حتّى يعود إلى فترة من اللاوعي جديدة، أمّا النظام فيمضي في عمله غير آبه. فإذا هو ينظّم النثر.

« قبل » الإبداع و « بعد »ه يُعنيان إذن شاطئيّ تلك الفترة السّعيدة من لاوعي النّفس، التي لا تعمّر سوى هُنيئات.

قبل الإبداع يسيطر عليّ ما أُسمّيه نغم القصيدة. وبقدّر ما يكون عليّاً عظيماً أطلع ما هو أكثر خلوصاً. ولم يتفق لي أن انثيت عن العمل البهّيّ إلّا أوان أفقد النغم، أي أوان تأخذ تطغى عليّ أفكار وصور وعواطف. وبعد الإبداع (وكذلك شأني بعد التذوّق) أحسّ الكون أكثر

تآلفاً معي منه في المعتاد. فأرجّح أنني كنت، في أثناء
الحالة الشعريّة، على تأخّر مع الكون، على مواجهةٍ للأزليّ
من الحقائق التي كنت أجهل.

قبل الإبداع سلطنة نغم وبعده أثرٌ تأخّر مع الكون ؟
هل يعني هذا أنّ الشعر مادّة الموسيقى ؟ لربّما. وسلطنة
النغم قاعدة لا تُخطئ. والعلم يعلم أنّ الإتحاد بالكون لا
يتمّ إلّا بالتموّج. ونحن نعرف أنّ أوثق ما يرتبط بالنفس
أشياء موسيقيّة ومظهرها الطبيعيّ الغناء. وقد ثبت أنّه من
الرّملة إلى الكوكب، من أدقّ الخلايا إلى أبعد جنبات
الكون، إنّما يقوم ارتجاف دائم، تموجات دائمة. وباكراً،
منذ القرن الخامس عشر، قال العلامة ده كوزا : « ان
النفس لحن ».

أتكون، يا تُرى، مادّة الشعر تموجاً ؟ أتكون موسيقى ؟
وبعد، لعلّي لا أبعد عن الحقيقة كثيراً إن قلت : الشعر
حالة من لاوعي فوق الوصف لا تُشرح، جوهرها أشبه
بموسيقى، بها يتحد الشاعر حميماً مع الأزليّ من حقائق
هذا الكون المهيب.

* * *

الحالة الشعريّة، كيف أنقلها منّي إلى المتدوّق ؟

قلت أنقل ولم أقل أعبر أو أترجم أو أصوّر أو أمثّل
أو أدني أو أعكس أو أنبئ أو أنشر، إذ الشيء لا يمكن
غيره أن يكونه.

من التّحديد أذكر بأمرين : الشعر من لاوعي، وجوهره
أشبهه بموسيقى. نقل الشعر إذن يقتضي تعطيّل الوعي
في القارئ وأن أخلق فيه جوهرًا أشبه بالموسيقى وأخلقه
على شاكلته بالذات.

أولاً : كيف أعطّل الوعي ؟

أقول : غداً، لمحض ما أن يواجه القارئ قصيدي،
سيكون قد هيأ لها وعيه، عاد بأجمعه وعياً بوعي : عقلاً،
تخيلاً، حسّاً. سيكون على تمام أهبة إذن لأن يأخذ من
الحالة الشعريّة ما يقع على السطحيّ من قوى النفس،
لأن يأخذ منها مظهرها الأخطّ، نثريتها بالذات، لأن يحوّل
لاوعيها إلى وعي، لأن يخرجها عن طبيعتها، لأن يقتلها.
إذن فلا أعطّل فيه الوعي. كيف ؟ بأن أشغل منه الوعي،
ظاهرة الفضوليّة فيه. الوعي يطلب أبداً أن ينشط، أن
يعي ؟ فلا أعطيه حقلاً يعمل فيه نشاطه، ولكن حقلاً مركّباً

(ويقول البرانيون : صعباً) بحيث يجهد، ويجهد حتى يتعب، وأخيراً يكلّ.

هذا الحقل عرفه النظريون المحدثون باسم « الإيحاء ». أمّا بحثهم الإيحاء فلم يخلُ من سذاجة. قالوا مع ملّهم : الأشياء قِيلَتْ ألف مرّة : يكفي أن نومي إليها إيحاء، نتمتع بعض الكلمات، ليروح السامع يكتشفها من ذاته ونكون لم نضيّع عليه لذة الاكتشاف. وقالوا مع غير واحد : إن القارئ إذ يكتشف يحسّ أنّه شارك الشاعر في خلق الحالة الشعرية، يحسّ أنه هو أيضاً مبدع.

على أن الإيحاء، حقلنا المركّب العجيب، ينفضح سرّه إن هو درس في مظهره « التعدّدية ».

« التعدّدية »، في الموسيقى مثلاً، (وهي ذروة أنواع الموسيقى) هي أن تضرب في الوقت الواحد أصواتاً مختلفة. فإذا الوعي، ولا صوت واحداً يرتاح إليه، أي يعيه، يحاول أن يقبض على الأصوات المتعدّدة مجتمعة، فيجهد نفسه، لكنّه (وهو الضعيف الضعيف ولسطحيّته ذو خاصّة تتطلّب الواضح والمفرد) عبثاً يجهد، فإذا به يتعب ولا يلبث أن يقع دون المحبّة، وهكذا يترك الأصوات المتعدّدة

تخاطب اللاوعي، وهي التي إنما وُجدت له ولها وُجد.
ألجأ إلى الإيحاء؟ أو، بلغة الموسيقى، إلى
« التعددية »؟ أوليس إلى هنا مردّ أقوال برغسون: « غرض
الفن أن ينوّم القوى العاملة، أو بالأحرى الصامدة، من
شخصيتنا، ويذهب بنا هكذا إلى حالة انقياد تام... »؟

هو العمل السلبي لـ « التعددية ». أمّا عملها الإيجابي
فلعلّي أتبيّنه عندما أفاجئني أخلق جوهر الحالة الشعريّة.
ثانياً: كيف أخلق في القارئ جوهر الحالة الشعريّة
وأخلقه على شاكلته بالذات؟

الألفاظ، عناصر الشعر الماديّة، ليست علاماتٍ محضٍ
اصطلاحية. اللغة لم يوجدها فرد ولا مجلس أفراد،
فيصطلحها اصطلاحاً. اللغة بنت التفاهم البدائي. هذا كان
بين الناس، شأنه اليوم بين البكم غير الصمّ، أصواتاً، لأنّها
جوهر المعبر عنه. فإذا يكون طور الكلام تعود اللفظة
مجموعة أصوات أكثر تساوياً في الجوهر وشكل الجوهر
مع الشيء المقصود إظهاره.

هو سرّ تكوين اللغة لا أزيد. وهو المبدأ الذي ينبغي
أن يظلّ عليه الكلام.

ولكن إذا تكون الكتابة، وتُغرق اللغة في الاصطلاح،
(وهو إنما يستدعي التدخّل العقليّ، الذّاكرة على الأخصّ)
وتخرج الألفاظ عن هذا التّساوي في الجوهر وشكل
الجوهر مع المقصود إظهاره، تعود مهمّة الفنّ أن ينتقي
ويرتّب بحيث يوجد تركيباً كلامياً، وقُلّ موسيقياً، فيه
من الأصوات، تمازجها أو التّنادي، جَهِيرها أو الخَفيّة،
مقتَضِيها أو المنبسط، إلى لعبٍ ولفٍّ، ممّا يؤلّف
صِغاً صوتيّة تعيد بين الكلام والمقصود إظهاره رابطةً
فيزيولوجيّة سبق للتدخّل العقليّ أن فُصّماها. وبقدّر ما يُوفّق
الفنّ إلى ذلك تكون درجةُ الخُلوص في الشّعْر.

تساوي الصّيغ الكلاميّة والحالة الشعريّة جوهرأ يقتضي
أن تكون الصّيغ الكلاميّة من تمّوجات هي نفسها مكوّنة
الحالة الشعريّة. والتّساوي شكلَ جوهر يقضي أن تكون
الصّيغ الكلاميّة من تمّوجات هي نفسها تكوّن الحالة الشعريّة.
والتساوي شكلَ جوهر يقضي بأنّه إن كانت التّموجات التي
تكوّن الحالة الشعريّة على شكل لولبيّ مثلاً أو خط مستقيم
أو ما إليه وجب أن تكون كذلك التّموجات التي تتألّف منها
الصّيغ الكلاميّة.

يطيب لي أحياناً أن أتناول الأصل والترجمة لقصيدة

ذاتِ ترجمة عبقرية. (أقول الترجمة غير ناسٍ ما يزعمون من أن الشعر لا يترجم. وإنه كذلك إن كان المقصود أن تحوّل على مساواة في المعاني بين أصل وترجمة. ولكن الشعر أكيداً يترجم إن كان المقصود مساواة الحالة الشعرية يُطلعها الأصل بالحالة نفسها تُطلعها الترجمة). وأختبر وقع الصيغتين على من يجهل لغتي الأصل والترجمة فألاحظه يستشعر، دوماً على وجه التقريب، الحالة الواحدة : ففي اللغتين يسمع الحلق يعمل إن كانت الحالة الشعرية متمظهرة الجوهر بأصوات مختنقة، وفي اللغتين يتحسّس الأبيات عصبية أو متطايرة إن كانت الحالة متجلية الجوهر بأنفاس مقتضبة أو وثابة. فأوقن أن أبيات الترجمة لم تتمكن من نقل الحالة الشعرية بالذات إلا بعد أن ساوت أبيات الأصل جوهرًا وشكلَ جوهر، وأبيات الترجمة يستحيل أن تكون قد نقلت حالة الشاعر لو لم تساوها جوهرًا وشكلَ جوهر. وبديهي أن شيئاً يساويه أحدُ شيئين متساويين هو مساوٍ ثانيهما.

وبعدُ فالقصيدة، أداة نقل الحالة الشعرية، أحدها هكذا :
مأثورة كلامية توصلت بتجارب موصولة — وقل بلقيّات
— إلى فلذ، إلى أبيات، إلى مجموع إحائيّ يعطل بتعددية

الأصوات وعي المتذوق ويتكوّن في لاوعيه بأكثر ما يمكن
من مساواة لحالة الشاعر جوهرًا وشكلًا جوهر.

* * *

هذا عن الشعر كفنّ، أي كواحد من مظاهر الجمال.
أمّا الشعر في أغراضه والتفصيل فيها فمسألة أخرى. ولربّما
أمكنت إزاحة طرف من ستارها بالقول : إنّ الجمال الذي
يخلعه الشعر، سواءً على الشاعر أو على المتذوق، إنّما
قوامه هدوءٌ خالص لا تتلاطم فيه فكرٌ وصورٌ وعواطف،
هدوءٌ يجعل النفس، ولا شيء يفجأها أو يعكّر صفاءها،
منطويةً على ذاتها، أعماقها على أعماقها، حتى لتغدو أكثر
تآلفاً مع حقائق الكون، بل تغدو وحقائق الكون شيئاً
واحداً، فإذا هي فوق هذا العالم بآلامه ونقائصه، لا تصطدم
عمياءً بأيّ نظام تجهل.

المجلد

- ربّ ربّ ، أما كان يمكن..؟
- قل : لو تفعلتون من الأوهام
التي نسجتكم، فتروا ان للجمال
منطقاً معصوماً.

نَغْمَةٌ آذَنْتُ وَصَحَّوْا أَضَاءَ
فِي مَحْيَاً
هَيْهَانَ مِنْ نَعْمَاءَ.

تَتَرَاءَى فِيهِ الْأَمَانِيُّ
زُرْقَاءَ،
وَتَفْنَى
عَبْرَ الرُّؤْيَى
بَيضَاءَ.

نَزْهَةٌ لِلْعَيُونِ
تَغْوَى بِهِ
وَهَمًّا
وَتَنْهَدُّ دُونَهُ إِعْيَاءَ.

وتعرّى خدّانٍ عن شفقٍ رَحْبٍ بهيِّ السّنى، نقيّ التّناجي،

في مدى سجعة اليمامِ
تتاليه المُغالي،
وفي مدى الابتهاج.

أُئيُّ بوحٍ
من عاشقٍ
لم يرجّعه،
وأئيُّ ارتعاشةٍ واختلاجٍ !

مثلُ وحيٍ مُجنّحٍ
مرّغ الرّيشَ
غنّوجاً،
في ناظرين،
حيّاً،

ساكباً فيهما من الليلة القمراءِ
أو تاركاً
من الريشِ
شيئاً.

لا تُكوناً إلى سكونٍ، ولا حُلماً بحُبٍّ، ولا انتهاكاً لِسِرٍّ،

غيرُ ظلٍّ
من لفتةٍ
حُلوةٍ الإِفضاء
رَفَّتَ عليهما، بعضَ دَهرٍ.

واستلانَ الضُّياءُ
ضحكةً ثَغْرِ،
غافياً، مِلَّئها، عليلَ الأمانِي،

شائعاً حوْلَه، من الوَهْمِ،

أَلْوَانُ
خِصَافُ
يَعِينُ فِي أَلْوَانِ.

سَفَحَ اللَّهُ، غَبَّ نَشْوَتِهِ، قَارُورَةَ الْحُسْنِ فِي صَحَارِي الْبَرِّيَّةِ !

فَإِذَا فِي الرَّبِّي
اعْتَرَاشُ الدَّوَالِي
وَوَرَاءَ الرِّمَالِ
رَجَعُ الْأَغَانِي،

وَإِذَا لِلْحَيَاةِ أُمْنِيَّةُ الْحُبِّ،
وَلِلْأَرْضِ

مريمُ المَجدلية.



رأت النورَ، عَهْدَ لا يتعبُ النورُ،
وعَهْدَ الدُّنيا له، والعصرُ،

وتلَوْتُ
في مهدها،
فكرةً بيضاءَ
مخضوبةً بوهج ولَذَّة،

تملأُ الجوّ
من أصابعها العشرِ،
فملهى الصُّحى
أصابعُ عَشْرُ !

طفلةٌ واللمى يَهُمُّ بأنَّ يُعطاك
والقلبُ
فلذةٌ إثرَ فلذةٍ..

غَدُّها
كانَ قَبْلَها ،
لا انطوى خَصْرٌ
بأشهى
ولا تَلَألاً تُغْرِ !

رأتِ المَجْدِلِيَّةُ الضَّوءَ
أَسْيَانَ ،
فأَجْرَتَهُ
في الرُّبَى
أنهاراً ،

والمُروِجَ الفُتَيانَ،
ذَبَلَى كَهولاً،
فَجَنَّتْهَا أَعِزَّةٌ أُرْزارا.

قَطَفَتْ بُحَّةَ الحَبِيبِ
نَشِيداً،
وَاسْتَرَدَّتْ آهَاتِهَا
أَشعارا.

فَإِذَا الحُبُّ،
ذِلَّةُ النَّاسِ فِي الظُّلْمَةِ،
يَنْدَى
فِي مَفْرِقِ الصُّبْحِ،
غَارا.

هَدَمَتْ كُلَّ وَرْدَةٍ مُنْتَقَاةٍ
وَابْتَت
عَرْشَهَا
عَلَى الْأَنْقَاضِ،

تَخَذْتُهَا قَوَاعِدًا
وَتَخَطَّتْ،
لَيْسَ تَرْضَى بِمَا بِهِ الظَّنُّ رَاضٍ !

يَطْهَرُ الطَّرْفُ، إِنْ رَأَاهَا عَلَى نَيْرٍ عَهْرٍ مُخْضَبٍ بِيَاضٍ .



عرف الناسُ نشوةَ الحُبِّ في نديانِ جسمٍ مُخضوِضٍ
اللذاتِ.

مرَّغوا في أريجِ الجبهةِ البيضاء،
واستوقفوا الهنيهةَ
بِكرًا،

واستلذّوا
نبضَ الأسرّةِ
وانهدّوا
هُيامي
على جنى الطيّباتِ،

عانقوا الحُلُمَ
إضحياناً
تعرّى
عن ربيعٍ مُوهٍ، وأُفقيٍّ أَمَرٍّ،

وتَغَنُّوا
مع الجَمال،
وهزّوا
لذّة الوصل في سرير الحياة.

من صِبا المَجدليّة اقتصفوا العُودَ،
ومن رَنّ كأسها، النّغماتِ !



خَفَقَ اسْمٌ
في جَوِّ أُورَشَلِيمَ
خَفَقَةَ العِطَرِ في جِواءِ الرّبيعِ .

وتَغْنَى الحادي بحسَناء، حُلِمَ الأرض مُدَّتْ له، ففَرَّ،
يُداها.

سُجِّدَ دونها الأَعِزَّةُ من روما،
ومن رَحِبِ فَتَحَها،
ومُنّاها.

دُمِيَّةُ
أَشْرَقَتْ
على سُرُرِ الرِّفْعَةِ،
بين العُبدان، بين الشُّمُوعِ.

سَعَفُ الغار دونها في انكسارٍ،
وستنى التاج
مُطَرَق
في ركوعٍ.

قدّستها العروشُ
قدّسها الناسُ،
وداست على قلوب الجميعِ.



كان، في ذلك الزمان،
على تلٍّ صغيرٍ
مُخضوضٍ الجَنَبَاتِ،
مُبدِعٌ
قالت الجديدَ
يَدَاهُ،

ينثرُ الياسمينَ
في الكلماتِ،
قام بين الأمواجِ،
من نظرَ الناسَ
ومن مِسمعَ الذُّرى الواجماتِ.

يُفَعِّمُ الثَّبرَةَ التَّفَاتِ
إلى فوقِ،
ويُبْقِي
على البقاءِ
صداهُ.

تمتات
تقولُ آناً : يسوعُ،
هينمات
آنا تِصَجَّ : اللهُ.



سمعتُ زهرةُ اللذائذِ أَنَّ الكونَ بالناشِقِ الأبِّي تَمَخَّضُ،

بفتى الطُّهر، يَنْشُدُ الوردَ
صعباً،
طَيِّبَ الفُوحِ،
طَيِّبَ البَوَحِ،
أبيضُ.

واستزادت، والعين تبسُّمُ من هُزءٍ ودَلُّ القَوامِ في
إغراقِ،

وانثنت
جبهةً خجولاً،
ولحظاً
نائهاً في سرائر الآفاق.

أهْو همُّ الهمومِ
جارٍ
على خدين،
حتى لفي الهدوء اصطدام،

أم جمال الوجود
جُمع في ثغر
والوى،
فكلُّ حُسنٍ حُطامٌ؟!

رَعَشَاتٌ حَرَّتْ أَسَارِيرَهَا الْبَيْضَ
فَهَاجَتْ فِي أَفْقِهَا الْأَمَلا،

وَامَّحَتْ
ثُمَّ آذَنْتْ بِمَعَادٍ،
فَكَأَنَّ مَزَّقَ الْخِيَالُ خِيَالًا.

.. أَيُّ جَانٍ،
قَالَتْ،
تَمَنِّعَ مُزَوَّرًا عَنِ الرُّوضِ، يَوْمَ هَلَّ جَنَاهُ ؟

أَيَّ عَيْنٍ حَرَّى الشَّكَاءِ اسْتَطَابْتُ
هُدْبَ عَيْنٍ
جَفْتُ بِهَا الْأَمْوَاهُ؟

أَيُّ ثَغْرِ
حَرَّانَ
مَاتَ عَلَى ثَغْرِ
رَطِيبٍ مَا أَشْعَلْتَهُ الشَّفَاهُ؟!

وَوَهَتْ زَهْرَةُ اللَّذَائِدِ فِي سِرِّ يَسُوعَ
تَقُولُ :
يَوْمَ أَرَاهُ..

عند شاطي الأردن،
بين الخُميلات،
تَلاقى
يسوعُ والمجدليّة.

أبصرته
يُذرذِرُ الشَّعرَ
فجراً
ويُرَدِّ الأبرادَ
وهَجَ عَشِيّة.

تتكي رحمةُ العُلى، بين جفنيه، أتكاء السّنى بحِضن
البريّة،

ويلوح السَّلامُ

في شفّتيه

بسمه

حلوة

ونّبراً

بليلا.

يلتوي

نقّلة الطّفالِ

نحّيلاً،

ينثني

مِشيّة الملوك

جليلا.

الرّياحينُ مِنْ يديه تهاوَتْ

واغتدتْ

حولَ خطّوهِ

إكليلا،

سَرِبْلَتُهُ أَطْيَابُهَا، سَرِبْلَتُهُ سَحْبُ النُّورِ، سَرِبْلَتُهُ الْهَيُولَى.

وَرَأَاهَا،
يَهْدُمُ الْحُبُّ جَفْنِيهَا، وَيَعْتَلِ مِنْ شَكَاةٍ لَمَاهَا،

يُخْضِلُ الْأَرْضَ
مُتَّكَأً قَدَمَيْهَا، وَيَنْدِي الذَّبُولُ
فِيءُ خُطَاهَا.

خَلَعَتْ طَرْفَهَا عَلَى الرَّوْضَةِ الرَّيَّا،
عَلِيلاً،
فَأَوْجَعَتْ
رَيَّاهَا.

لا عليها ولا لها
غيرُ سِترِ الغيب،
تَذْريه
ثُمَّ تَطوي،
يداها.

وأبانت
عَمَّا يُظَنُّ كلاماً،
فتأَنَّى السُّكُونُ
والآنُ
تاها.

فجّرت في الفضاء سُلْسلةَ الحُلُمِ، وأرخت على الأديم
الصِّفاء،

مِنَ أُسَارِيرِهَا اكْتَسَبَتْ عَطَفَاتُ النَّهْرِ
زَهْوًا،
وَمِيسَةً الْبَانِ
جَاهَا.

فَالْأَفَانِينَ فِي الضِّفَافِ
جِسَانُ
خَالَعَاتُ عَلَى الْقُدُودِ الْهَنَاءِ.

سَفَحَتْ مِنْ هُدُوءٍ وَجَنَّتْهَا الصُّحُوفُ.
وَمِنْ غُمُقِ شَعْرِهَا
النِّعْمَاءُ،

واستثارت
مِنْ رَفٍّ أَرْدَانِهَا.
جَوًّا
وَمِنْ غُنْجٍ قَدَّهَا،
أَجَوَاءَ.

تَنْقُلُ الرَّجُلَ فِي التَّرَابِ
جَنَاحًا،
تَطَأُ الْأَرْضَ
كَالْجَنَاحِ،
فَضَاءَ.

قِطْعَةٌ فِي سِرَائِرِ الْغَيْبِ صِيَعَتْ
عَادَتِ الْأَرْضُ تَحْتَوِيهَا
سَمَاءَ.



هَامَتِ الْآنَ مَرِيَمُ وَيَسُوعُ،
فِي ظِلَالِ الْأَفْنَانِ
وَالْأُورَادِ.

يَشْرَبَانِ الْمَسَاءَ
مِنْ جَعْدَةِ الْأُرْدُنِّ، مِنْ هَبَّةِ النَّسِيمِ النَّادِي.

فَتَقَّتْ
بَسْمَةً،
وَأَشْرَقَ
لِحْظًا،
وَالدُّجَى لَمْ يَفُضْ بَعْدُ وُجُوهَهُ،

وَتَهَادَتْ
إِلَيْهِ،
فَالْأَرْضُ
فِي الرُّعْشَةِ
تَلْقَى الْجَمَالَ
قُرْبَ الْأُلُوهَةِ

سَلَسَلَ البدرُ نورُهُ
مُخْمَلِيًّا
بين خُضْرِ الخُمائلِ الحالماتِ،

وَتَقَصَّى الظلامُ،
إِلَّا هَزِيعاً يَتَهَادَى كَوَاكِباً راقصاتِ،

هَيْنَمَاتُ النَّسِيمِ، رَقْرَقَةُ الأضواءِ
مَسْفُوحَةٌ
على الكائناتِ.

في صَفَاءِ السَّمَاءِ والأَرْضِ
طَرَفُ
بِاسْطِ الْجَفْنِ للرُّؤْيِ العُلَوِيَّةِ،

في وُجُومِ السَّمَاءِ والأَرْضِ،
إِرْهَافُ

لنَجْوَى المَسِيحِ
والمَجْدَلِيَّةِ :

« يَا رَبِّبَ الخِيَالِ،
يَا أَفُقَ الفُكْرِ،
فَداكَ البَيَاضُ من حَرَمُونِ !

وَحَنَتْ فَوْقَكَ الضُّلُوعُ العَذَارَى
وَابْتَسَامَ اللَّمَى
وَنُورُ العَيُونِ !

يَا أَسَارِيرَ مُنِيَّةٍ عَزَّ لُقْيَاهَا،
فَاطْلَعَتْهَا
نَدَى
وَسَنَاءَ

ضاحكتك الأنسام في هدأة الفجر
وبثتك
روحها البيضاء !

يا اندفاع الأحلام
في بال عذراء
ويا بسمه
على ثغر أم،

عانقتك الأفكار
في غفوة الصُّبح
وروتك بين لثمٍ وضمٍّ ! «

باحثِ المجدلية الآن أم صلت ؟
وغابت،
مجنونة،
في الخيال !؟

حدّثْتُ مُبدِعَ الجَمالِ، إلَهَ الحُبِّ،
بالحُبِّ، طيِّباً،
والجَمالِ !

ودّعتهُ
إلى التَّمَتُّعِ بالأَيَّامِ
قَبْلَ الخَريفِ، قَبْلَ الزَّوالِ !

علَّتهُ
بأنْ تُهزَّهْهُ في الحِضْنِ،
أنا،
ومرّةً في الجفونِ،

إِنْ تُرْتَمِ
يُعَانِقُ السِّرَّ
فِي الصَّوْتِ،
وَيُشْرَبُ — إِنْ تَعْفُ —
رَجَعَ السُّكُونُ،

وإذا جاذبتهُ حُلماً يَبْدُلِ الأرضِ أُخرى
قالت :
« سَبَقْتُ ظَنُونِي ! »

صارحتهُ بالحبِّ،
والكونُ ساءَ
لا يَعِي
والزَّمانُ
لا يَتَوَالِي،

فإذا الرّدّ من يسوع
جفون
تسامي
وجبهة
تعالى.

— لا ! حنانيك، لا تُقلّ : « لا »
ففي ذلّي جوعٌ إليك دُمِرَ حالا.

لا
وفي اللاءِ منك ما يجعلُ الدهرَ
أراجيفَ،
والوجودَ
سؤالاً !

وارتمت زهرة اللذائذِ
هَيْمَى
عندَ رَجُلِي يسوعَ
حَرَى المَالِ

تَسْأَلُ الحُبَّ،
إِنْ غَرَاماً
وإِنْ قُدْساً،
وَكِفَانِ
مُدَّتَا بِنَوَالِ،

تَلْتِمُ التُّرْبَ،
تَوْبَةً،
ويسوعُ
يتوارى
في جُهِمَةِ الأدغالِ.

لَمَلَمْتُ
لِحَظَّهَا
فَلَمْ تَلَقَ إِلَّا
نَثَرَ آمَالَهَا عَلَى الْآمَالِ،

وَأَمَّحْتُ،
ذِلَّةَ الْحَيَاءِ،
فَلَمْ تَنَعَمْ
بِمَرَّاهِ
وَالدُّمُوعُ لَأَلِي !



وَدُمُوعُ الْمَسِيحِ
لَمْ تَسْقِ مِنْ خَدَّيْهِ
حَتَّى غَدَتْ
جَنَاحَ مَلَائِكَةٍ،

هَامَ فِي الْأَرْضِ
إِثْرَ مَرِيَمَ،
يَحْنُو
مِنْ أَضَالِيلِهَا
عَلَى أَشْوَاكِ.

فَإِذَا يَلْتَقِي بِهَا،
ذَاتَ يَوْمٍ،
تَسْحَبُ الدُّلَّ
وَسُطَّ غُلْفِ الْجِبَاهِ،

وَشَفَاءُ تَصِيحٍ :
« وَيَهَا ! أَلَا أَرُجُّمُهَا »،
وَحَكْمُ يَهُمَّ
عَبْرَ الشُّفَاهِ،

يُرْتَمِي
ذَلِكَ الْجَنَاحُ
عَلَيْهَا
فَيَرَاهَا الْإِلَهُ
ظِلًّا إِلَهٍ !

قدوس

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٤٤

الطبعة الرابعة ١٩٩١

قَدْرُوس

مأساة شعريّة من ثلاث فصول

« سوف نبقي، يشاء أم لا يشاء الغير
فاصمد، لبنان، ما بك وهنُ
سوف نبقي، لا بد في الأرض من حق
وما من حق ولم نبَق نحن ».

قدّموس

لما اختطف زوش، كبير الآلهة،
أورُب، بنت ملك صيدون، لحق
بهما قدّموس إلى بلاد الأغارقة
يسترد أخته.

وفي البيوسى قتل تينياً كان قد
فتك باثنين من رجاله، وبأمر إلهة
الحكمة بذر أضراره في الأرض،
فأنبت رجالا شاكي السلاح اقتتلوا
إلا خمسة أصبحوا فيما بعد نبلاء
ثيبا، أولى مدن مئة وإحدى سوف
يبنيها قدّموس.

وأورُب هي التي أعطت الغرب
اسمها كما أعطاه قدّموس حروف
الهجاء، وهكذا كانا الواحدة رسالة
الحُب والآخر رسالة المعرفة.

أسطورة إغريقية

الأشخاص

قَدموس

ابن الملك أغثار

أُورُب

أخت قَدموس وعروسة زوش

مِري

مرضع قَدموس وأورب

الأعمى

عرّاف إغريقي

جوقات

من إلهات، وبحارة صيادنة، ومقاتلة اغارقة.

صخر موحش الكهوف من ساحل البيوتى، في بلاد الإغريق،

متصف الألف الثاني ق.م.

الفصل الأول

المشعر الأول

أورُب، مری

أورب
حَدُّكَ الحَدَّ ! يا سماءُ، تَجَهَّمَتِ
تُعَلِّينَ، فارأُفسي بالجراحِ !
لا تُحَرِّي، رُحْمَاكَ، هُدْنَةَ ليلٍ
لا يحطُّ الثَّفَاتَةُ في صباحِ .
تُجهشُ باكية

مری
بضلوعي بكيتِ، أُورُبُ فأصْحَي .
أورب
آه ! لو عَفَّتِنِي لِوَحْدِي وآهي !

مرى

لا !

أورب

غضبي بسلطان

تقولين ؟!

مرى

معتذرة

أنت بنتُ أغنّار،

مليكي ؛ وزوجُ زوش، إلهي .

واذا أدّعي، فدعوى لبّانٍ

رضعتهُ من مهجتي شفتاكِ .

أورب

متأثرة معتذرة

عفو كفيكِ ، يا مري، أنتِ، في الغربة،

وجهٌ من عهد لبنان، حاكِ .

أنا، يومَ اعتلقتُ زوش، تخلّيتُ

عن الكّرّ فوق شيطانِ صُور،

في عذارى الأتراب، يخضّلُ خصري،

دون شتّى الخصور، باليرفير ؛

وتخليث — أين ضمة أمي ! —
 عن هوى ما سواه لمع سراب ؛
 عن أب، سيد الحواضر ؛ عن زند
 شقيقي، قدموس، زين الشباب ؛
 عن قرى من زمرد عالقات
 في جوار العمام، زرق الضياء،
 يتخطين مسرح الشمس، يركزن
 بلادي على حدود السماء.
 كل ما كان عفته ! كل ما كان !
 وآثرت ضمة من حبيب،
 واذكاراً كالطلل يُعشّ نفسي،
 كلما طوّقت يداك شحوبي.

تقيء الى صدر مري
 أنتِ حقّ أردته يحتوي عطر
 بلادي جميعه.

مري
 أنا أدري،

وتذكر يوم اختطفك وإياها من لبنان

ملء عيني عنك لوحة حب،
 بلبل جيد على البال كرا :
 مركب مفلت من البحر، تياها،
 يشق الشربين والسنديانا،
 تخذ الشكل عن فم الورد في البرعم،
 والدفق عن صبا لبنانا،
 وتحلى بالفل، والورد والآس،
 يغني للريح، يغوى ويومي،
 في هويناه مسح رب على الأرض
 وفي الخيزلي انقراط نجوم .
 ما لها تلة تقول لأخرى :
 « أنا منه في موعد المشتاق ،
 حلمت ضممتي به، منذ كان الحب
 في ثرتي، وفي أعراقي . »
 وهو ساه، كائما الصخر صخر
 لا دعت هضبة، ولا اهتز قاع،
 جد مجدافه على سندس السفح،
 وشال الصاري، وطاع الشراع .
 وتقولين : « ها تراب بلادي
 هس للأخشب الموات، ورقا ؛

إبعثوني غداً رسالةً حُبِّ
من بلادي تفجّر الأرض رِفقا. «
فإذا الطيرُ في الرُبِّيّ تتالت
وتغنّت، والغصنُ مادَ وشوقُ ؛
وسجا زورقُ الإله، ومُدّت
منه كَفانٍ تقطِفانكِ زَنَبُ.
لَمْ تشائي إلّايَ خِدَنَةَ عُرْسٍ،
لا ولم تأنسي إلى غيرِ بؤسي.
أنا لم أنسَ.

أورب
أيُّ أمٍّ حنونٍ
أنتِ لي! فانتحي معي ليلَ نفسي.

مرى

أوتبكين ؟

أورب
والنزالُ، مِرَى ؟ والسيف
أتّى يُصِيبُ وجيعاً، يُصِيبُني ؟
يا، هُويناهُ ! كان حُسناً فأذوى
وتملّى البُكاءَ والهَمَّ، حُسَني

ضَيْقْتُ ! لولا مُزَجِّجٌ فوقَ جفني
لم يُجَيِّشْ أَخِي على الإغريق ؛
لم أكن فيهم عروسة زوش ؛
كنت حرباً !

مرى

عَضْبَى

بل جُدْوَةٌ من شروق :

جاءَ قَدْموسُ بالكتابة، بالعلم
إليهم، إلى الأوتاي العصور ؛
وغداً يعرفون أننا على السفن،
حملنا الهدى إلى المعمور.
ما تقولين لو تُسمّى بلادُ الغرب
أورب ؟
أورب

مستغربة ما سوف يغدو واقعاً

لو تُسمّى بأسمي ؟!

مرى

زائقة كأنما يُمرُّ أمامها لوحةُ التاريخ جميعاً
أعجيب ؟! ونحن أوّل من حَطَّ
بأرض كَفًّا، وطرفاً بنجم !

وبلغتة الى المغرب خاشعة، تسميه بأسم أورب
 كُنْ، يها الضُّقْع، بأسم أورب، أرضَ اليمن
 أرضَ النُّهى، وأرضَ الجَمالِ.
 باركتك اليَدُ الأهلّت على القَفَر
 عطاءً، فالعَطْلُ من بعدُ حالِ.
 السَّحَتْ، أوّلَ الزمان، على تُربة
 أهلي بالعَيْثِ المِحراثِ،
 آلهِ الخيرِ يا لها تتحدّى
 دُنُيواتٍ ضُنْتُ برِزقِ بُغاثِ.
 علّمت، ويحها، أنِ الفُتْحُ كلُّ الفُتْحِ
 بالعمق، لا بعَرَضٍ وطُولِ،
 فإذا تَطَرَّقَ السَّواعِدُ بابَ الأرضِ،
 تَغَوَى بأنهُرٍ وسَهْوِ.
 والأذَلَّتْ — يا بُلّها، يدَ طَلّاعِ
 ويا بُعْدَها بصائرَ غَمَضِ! —
 عُنفوانَ المجهولِ بالزورقِ الأوّلِ
 يُلقِي أرضاً على حِضْنِ أرضِ.
 والأسَلَّتْ رُوحَ الخُلوصِ من المحسوسِ
 تحبو العقلَ الوليدَ شُمولاً،

غُرْبَةً فِي الْعِلَاءِ سَلَهَا : هَلِ الْإِنْسَانُ
بَاقٍ يَغَالِبُ الْمُسْتَحْيِلَا ؟
فَضْلَةً عَنْ خَوَانِهَا الْأَبْجَدِيَّاتِ ،
وَمَا بَعْدَ مُسْتَقِيمٍ وَدَائِرٍ ،
وَتَدَاعٍ شَجَرَ كَأَنَّ قُبَّةً مَادَتْ
وَزَهْرٌ مَفْتُحٌ فِي الضَّمَائِرِ !

أُورَبُ
هَجَّتَنِي ، يَا مِرَى ، فَخَدَّرْتَ نَفْسًا
حُمَلَتْ ، لَوْ دَرَيْتِ ، هَمَّ اللَّيَالِي
فَكَرِّي ، فَكَرِّي بِقَدْمَوْسٍ فِي إِثْرِي ،
مُشِيرًا حَفِيفَةً الْأَبْطَالِ ،
يَتَحَدَّى ، فِي عُقْرِ دَارِهِمْ ، الْإِغْرِيقَ
يَأْبِي إِلَّا مَرَدِّي عَنَوَهُ ،
يَزْرَعُ الرَّعْبَ فِي الْبُيُوسَى ، فَيَبْلُو
بَلْوَةً مُوْطِنِي الْجَدِيدَ فَبْلُوهُ ،
ضَجَّ مِنْهُ الْإِغْرِيقُ ، ضَجَّ أُولُو الْأُولَمْبِ ،
جَحْدًا وَاسْتَصْرَخُوا التَّيْنِيَا ،
يُوعِزُّ الْبَحْرَ ، فَالْأَوَاذِيُّ فِي الْبَحْرِ
جِبَالٌ تَكُوبُ رَوْعًا وَهُونًا ،

مَزَقَتْ مِنْ سَفِينٍ قَدَمُوسَ، مِنْ أَبْطَالِهِ
مَطْمَعَاءَ، وَذَلَّتْ عِنْدَهُ،
فَإِذَا زَنَدَهُ أَشَدَّ وَأَمْضَى،
يَوْمَ يَلْقَى صَدْرًا لَصَدْرِ نَدَّه.
لَا يُرَى الْفَجْرُ أَوْ يَخْرُ قَتِيلًا
وَاحِدًا مِنْهُمَا.

مرى

مستدرجة

وَمَا التَّيِّنُ !
أَفْصِحِي، وَالتِّي وَقَتْلِكَ بَعِينِهَا
الْأَذَى، فِيمَ سِرُّهُ مَكْنُونُ ؟
مَرَّةً، شَتَّ أَنْ تَبُوحِي، فَغَاضَتْ
شَفَّةً مِنْكَ خَلْفَ تَصْخَابِ آهٍ !
أَلْهَأُ تُرَاهُ ؟ أَمْ هُوَ وَحْشُ ؟
أَمْ هُوَ الْغَيْبُ أَثْقَلْتَهُ الدَّوَاهِي ؟ !

أورب

متهية

أتراني أدري ؟

مرى
وما قال زوش ؟

أورب

مسترسلة كأنما هي تهذي

قال عنه : « أُمُّ من إنسان،
مغلق، إن يين فأظفار ليث
وجناحي نسر على أفعوان،
وحش وحش الوجود، سر الغباوات
إذا قُدرت لهنّ السنين،
قول من قال : « إِنَّمَا الْحَقُّ لِلْقَوَّةِ »،
هل كان غيره التَّيْنُ !
ينفث النار من حديد لسان،
ويُفَتّ الصخر الأصمّ بنايه،
إن يُنْقَضْ جناحه يُتنّ الورد،
ويسودّ زنبق في شبابه ؛
أو يُدرّ طرفه يصبّ هجيراً .
في عليل الصبا ويجترّ نارا ؛
بات أعمى عن الخليقة يلتدّ،
إن التّدّ جيفة ودمارا .
ذاك قرنُ القدموش عند بزوغ الفجر .

كأنَّما توقظ أورب

أوربُ، ما لصوتك هُدا ؟
 فيم تبكين ؟ فيم تخشين تنين البُوسى
 يلقى الغريم الأشدا ؟
 أنا أدري المَلا بغضبة قدموس،
 وجسمٍ من صخر لبنان قدّه،
 طال ما استشرفته، في الأرز، عيني،
 يافعاُ تفجر الفتوة زُئده.
 أجفل الليثُ منه، فانتهر الليثُ
 شجاعاً، وردّه مستذلاً،
 ضربةً منه لا تخيب، فإن ينقضَّ
 يبطش، وإن يشأ يتسلأ.
 صدره، عارياً، أحنّ الى الكرّ،
 وكفاه، عُزَّيَّسن، أمرُ.
 يا له، حين يطرح الخنجرَ الجهم،
 ويجري، فالجوّ أغبر، حرّ،
 يضرب الليثُ بالجُماع فيسخى
 ضربَ شبعانٍ من لبّا ثدي أمّه،

فإذا صَمَّمَهُ استَعَفَّ وَإِلَّا
 أَعْمَلَ الزَّئِدَ يَحْتَوِيهِ بَضْمُهُ،
 سَلَّهُ مِنْ إِهَابِهِ، وَرَمَى الْأَرْضَ
 بِجُثْمَانِهِ يَحُرُّ نُدُوبُهُ،
 وَتَلَوَّى عَلَيْهِ يَمُرُّ شِدْقِيهِ،
 فَيَنْعَى إِلَى السَّبَاعِ نِيَابَهُ !
 يَا احْتِضَارَ الْأَسْوَدِ ! يَا طَرْبَ السَّفْحِ
 لِرؤْيَا تَهْوِي بِهِ وَتَشِيلُ !
 رَاحَ قَدَمُوسُ يُنْزِلُ الرَّعْبَ فِي الْآجَامِ،
 فَالْأَرْزَ هَازِجًا، وَالنَّخِيلَ ؛
 وَتَخَافِينَ أَنْتِ أَنْ يَظْفَرَ الثَّيْنُ ؟
 أَوْرَبَ

بجرح عميق

لو تدركينها ————— أسراراً !

قَدَرٌ ...

مرى

بِمُ تَذَرَّعَتْ بِنْتُ صَيْدُونِ ؟

أورب

بما يَقيِدُ الأُمُورَ الكِبَارَ،

بَتْ فِي أُمَّةٍ تَوَلَّاهُمْ كُثْرًا
 وَيُودِي بِهِمْ وَبِالْعَرْشِ وَاحِدًا،
 الْمُجَلِّي عَلَيْهِمْ، ذَلِكَ الْأَعْمَى،
 وَلِيُّ الْمَصِيرِ، رَبُّ الْجَلَامِذِ.
 قَدَرٌ إِنْ يَشَاءُ يَغِيضُ ذُرَى الْأَوْلَمِ،
 أَوْ يَضْرِبُ الْحَضِيضَ بِرُوشَا.
 شَاءَ أَنْ يَلْقَى الْإِلَهَ ابْنَةَ الْأَرْضَيْنِ :
 سَهْمٌ إِلَى السَّمَاوَاتِ رِيشًا،
 أَوْجَعُ الْخَالِدَاتِ فَاهْتَجَنَ مِنِّي،
 غَيْرَةَ الْحُسْنِ لَيْسَ بِالْمَعْبُودِ،
 غَضِبَتْ تَدْفَعُ التَّحَدِّيَ هِيرًا،
 زَوْجُ زَوْشٍ، بُوْعْدَهَا وَالْوَعِيدِ.
 خَافَ زَوْشٌ عَلَيَّ شَرًّا، فَخَلَّى
 عِنْدَ بَابِي ذِيَالِكَ التَّنِينَا،
 قَالَ : « مِنْ صُلْبِهِنَّ يَحْمِيكَ وَحَشٌّ.
 فَاطْمَنِّي، مَا لَمْ يُهَنْ، أَوْ فَهُونَا ».

مرى

بَهْلَع

هو إن مات ... ؟

أورب

مُتُّ.

مرى

مشيحة عن هذه الخاطرة

لا قلت !

أورب

والآن،

أجيب قدرتها الأقدارا ؟!

مرى

لا وأبقى ابنةً لصيدون ؛ هتبي
أطليعيه، صيدون، شهماً نهرا،
هاتفاً عن يدك : « أنا، أولي السعي،
أبيناه عاجزاً يتحكّم،
زورثه خرافة، أفرضي
أن تروح الدني رهائن أبكم ؟! »
كلّ شيءٍ من تلكم اليد.

أورب

حقاً،

يا مری ؟ يا مری، ادفعي الموت عني،
وادفعي عن أخي.

مری

فديتك، ماذا ؟

نقصد الموت في خطي المظمن،
ونقولن : « قدر القدر الأعمى ؟ ! »
أعزُّ يُشرى بلا أثمان ؟
أفتراش زندي إله وذكر
في كتاب العلى — وبال هاني !

أورب

مشيخة عن التفكير بالمجد، منصرفة إلى أشجانها
أي عبء حُمِلتْ يثقل عيني،
ويطوي نفسي على الجرح طياً !
خلتني نعمة تفتت في الكون،
فيغدو صدراً لها وحيناً،
أسكرته لبعض صبح، ولكن
فاجأ الصبح مثل ليل غاضب !
فكان الوجود كهف مخوف
وهي في قعره استغائهُ هارب !

في غدٍ ملتقى شقيقي وحامي :
بلادي هَنا وهَنا شبابي !
وأنا، في توقّع الخطب، غَصُّ
من سراج، وحفنة من ضباب.
زهرة لم يَطْلُها الطل حتّى
قهقهت تنعب الرياح وتصخب،
جيدّها كان فوق يلعب في الشمس
فعفره، أيّها الترب، والعب !

بتشاؤم

ما لِطَيفِ الشحوب يسحب في الأرض
ويُرْخي الضنى على الأرجاء !
غَمٌ أَسَى، أيّها الغروب، فها نجمك
في أفقه محابٍ مُراء.

مرى

بنْتُ صيدون، والفؤادُ أليفُ الوهن ؟!

أورب

مَن ذا أرى، مِرى ! العرّاف !

مرى

يا لأعمى مُرْجَمٍ أبدأ بالشر.

أورب
هل خفتِه ؟

مرى
أنا ؟ لا أخافُ.

أورب
متعلقة بخيط من الأمل واهٍ
ما تقولين لو نطارحه الأمر،
وظنني به رسول إله ؟

مرى

ترهات !
وتهم بالذهاب

أورب
مهلاً، وإن يشن قدموس،
فلا حرب، بعد ...

مرى

حقاً ؟ ... تباهي

وتقولي : « قدموس أقسم ما برّ
بعهد ؛ يرمونه ليس يرمي »،

وتقومني وتقعدي لعظيم
صدّ صيدون مرةً عن عزم !

المسحدر الثاني

أورب، الاعمى

الاعمى

دون مرمي يدي، على الساحل التّياه،
وجهُ جَهْمُ الأسارير، داج،
مُترعُ بالآسى، يُهَوِّمُ فيه
جوعُ دنيا تنشقّ من أمواج،
فيمَ عيناه تمرحان على الأفق،
وتستطلعان نَحْمًا تَحْمًا؟
ويدّ في مجاهل الجوّ تمتدّ
تباهي نجمًا، وتقطّيف نجما؟
ما شميمي حبّ الغريب على الأمس
المدمى، وموكبُ الغد صاعد؟
شبحُ خانقٍ وآخر مذعور،
غنى بائدٍ على قبرٍ بائد.

في البيوسى الحرّى، على حرم الإغريق،
أجلافُ أجنبٍ تراءى ؛
أين نارُ الأولمب تنهال لا تبقي،
وتمحو الحواضر الغناء ؟

أورب
واجفة، وقد أوجست منه تغضّباً على الصيادنة
بشراً كنتِ ام إلهاً، ترفق
ببقايا نفسٍ غريبةٍ دارٍ،
زهرة ملّت الجمال، وراحت
تنتهي في قوامها المنهار،
صارحتها حقيقةً حجرٌ ما الجرح،
ما اليأس، ما الحمام الحبيب ؟
لصباحٍ قِلتُ، فلما وعث قولاً
وطارت إليه، كان الغروب !

الاعمى

أختُ قدموس ؟

أورب
مَن سواها لهم ؟

الأعمى

لا تخافي : قَرِي على الأخ بالا.
موعدي بالتقاءه الآن.

أورب

ضارعة إليه أن يكون رفيقاً في إقناع قدموس بالعودة الى صيدون
جَوْدُ

من دموعي، يا راحم، الأقوالاً !
دُسَّ في الصوت نكهة العسل الحلو،
وقل رنة القناة المغضوب،
قسوة في رضى المحيّا، وليناً
في التحدي، شأن الحبيب الحبيب.
وتجنّب جوّ القلى وحراب الهُزء،
وأضرب على الأحسّ الحنون،
خُذه من قلبه العطوف على الضعف،
وخذه من كبره الصيدوني !

الاعمى

أزِف الموعِدُ، أرفقي بك، أروُبُ.

أورب

تلقّت وأنظُر !

الأعمى
شاعراً بعظم القادم من قولها له وهو أعمى : تلفت
أجل.

أورب

قدموس !

الأعمى

أهربي، ويك !

أورب

كأنما تنسلخ عن رؤية قدموس انسلاخاً
ما لي اشتقتُهُ، واشتقت
دنيا في بُردتينِ تميسُ !

الأعمى

أسرعي !

تخرج أورب

يا خطي سُدَى حثّها اليأس،
فأبقت في صفحة الرمل وسماً،
زبدُ البحر واقفٌ منه بالمرصاد،
والدهر منجلٌ ليس يعمى.
قدّر فوقنا !

المسحدر الثالث

الاعمى، قدموس

قدموس

راداً على « قدر فوقنا »

مقالةُ جُبِنِ !

شأ تزلزلُ دنيا، وشأ تبينِ دنيا.

الاعمى

متصنعاً استضعاف قدموس

لا تجبر، قدموس، لاح لك النجم،

تهيب لا تستخف الجنيا.

تحداه جيلنا ؟ جيلنا عاتٍ،

وكالوحش، لو تذكرت، ضار.

قدموس

أنا من أمّتي رسالة نور

ترك الوحش غير ذي أظفار.

الاعمى

حد من حدّة، وصيدون أنتم،

ما تمرستم بقرع الأسنة.

قدموس

صادقٌ أنتَ. ليست الحرب في صيدون
قصداً مقصداً أو جَنَـه،
غير أنا اذا نُضام نجىء الموت.
الأعمى

عائِد ...

قدموس

ما عزَّ غيرُ المُعانِد

الأعمى

تستخفُّ الإغريق، لا بأسُك البأسُ
ولا سيفُك الفِرْنْدُ الحاصدُ،
صولَةُ الغرب ...

قدموس

خلّ، ما صولة الغرب ؟

الأعمى

جراحٌ وكبرياءٌ جراح ؟

قدموس

ما تكبّرتُ : مشرقُ الأرض ساحي،
يوم أُعطي، ومغربُ الأرض ساحي

الأعمى
دَلَّ أَمْساً وحشُ البيوسى رفاقاً لك.

قدموس
أَمْساً. وارتدَّ عني كليلاً ؛
ما على الشمس، ما على عرشها الثُبَّتْ،
إذا الأنجم انفرطنَ فُلُولا ؟!
الأعمى

متصنعاً الشفقة
أَنْتَ في غربة، فرقاً بصحبِ
شُرِّدِ، دون موطنٍ في الغداة.

قدموس
نحن صيدونيون، موطننا الأرضُ،
ونأبى أقلَّ ساح الحياة.
الأعمى

البيوسى قفرٌ من الرمل جذبٌ،
لا نباتٌ في صخرها، لا مدائن.

قدموس
نحن غير الغزاة ، نترلُّ قفراً
فنخليه أنهراً وجنائن،

نزرع المُنْدَنَ، نزرع الفكرَ في الأرض،
ونمضي في الفاتحين مثلاً ؛
وغداً تعرف الحضارةُ في صيدون
أمّا، فتنحني إجلالاً !
الأعمى

نافذ الصبر
أبدأ لا تَنَوَّنَ قرصان بحرٍ !
قدموس

بأناة وثقة
تهمةٌ تستخفُّ بالشمس شانا،
حبذا، والضياء وَقَفَ على القرصان،
لو عادت الدنى قرصانا !
الأعمى

مسترسلا في الإهانة
مهلاً قدموس، قفرةٌ في البيوسى
فوق صيدون رفعةٌ والحواضر،
فوق ما تدعون من قُبِّ شَمِّ
وشُهْبٍ، ظواهرٍ بظواهرٍ ؛
إِتِّدَ.

نحن للظواهر ؟ نحن الكاتبو
صفحة الحقيقة شعرا.
سُفُننا الألف ما يُني هيبة الأعصر،
تفري المجهول بحراً فبحرا،
عمرت جزركم عمائر غناء،
وفضت غنى ثراكم مناجم،
في كريت النحاس، في قبرص الصبغ،
وفي رودس القلاع الجوائم.
واشرأبت الى جزيرة تاسو
تملاه تبرها إبريزا،
قل ! من الضاربون عبر الألبون^(١)
يُفلّون في البحار الكنوزا،
يقحمون البُسفور، حيث الصخور السبليات^(٢)
جُوع الغور، فُجّع،

(١) دردنيل الأقدمين.

(٢) إسم لصخور مخيفة كان الأقدمون يزعمون أنها تنطق على الذي
يتوغل في البوسفور.

مطبقاتٌ على المغامر، يسحقن،
فَعَزُّ يُطْوَى وَيُندَف مَطْمَعٌ ؛
بُسْلٌ يمرحون في بُنْطٍ أَكْسِين^(١)،
على رحمة الرياح التواهم،
لا يشدّون قبل عجرفة القوقاز
سَفْنًا، ولا يَهْوَنَ عزائمُ.
قل ! مَنْ النازلون قيثرةً بعدُ،
وإيطاليا، وجزراً، وجزراً،
يوقظون الدنيا على ضربة المِعْوَل
مستعمراً، فتنهض سكرى،
سَفْنُهُم في الجنوب تهمني على النيل
اختراعاً، وفكرة، وصناعاً،
فاذا الطرف جاب منفيسَ مصر،
خَلَّتْ لبنان مستقلاً شراعه ؟
قل ! مَنْ الفاتحون إفريقيا بَكراً
يَشِيدُونَ قِمَةً في المغارب،
دَرَّةَ البحر، قيل تصميمٌ فتح
باسم قرطاجةٍ على الكون ضاربٌ !؟

(١) البحر الأسود.

الأعمى

فاخر قدموس بفتح صيدون للبحر المتوسط، وقد اتمته في منتصف
الألف الثاني، أي في عصر قدموس ؛ ويتكلم الأعمى، لغاية في النفس،
وهو عراف، على فتح صور الذي سيحصل بعد ذلك العصر.

خلّ، قدموس، خلّ ؛ ما أمس إلا
ومض برق من ضجة الغد نزر :
ستحرون، بعد، جمجمة الأرض،
فيرقى على يدين الفكر.
كل صرح ممرّد في ربي صيدون،
رمل في شط صور طريق.
تركون البحار خلف هواكم
لا تكلون أو يكل الطموح.
آخر الأبيض الرhib مقل السفن
من نزهة لكم قمرأ،
لا البليار شافيات غليلاً،
لا ولا غالبا الجميلة داء.
صفحة الأرض حذها الهرقليات"،
وتأبونه على الأرض حذاً،

(١) كان الأقدمون، قبل الصوريين، يعتقدون أن الأرض تنتهي عند أعمدة
هرقول، جبل طارق اليوم.

فتفضّون في المحيط، بعيداً،
دنيواتٍ كأنّما الكونُ مُدا !
تحمون الإبيريا، والقسيثيريد^(١)
والجزر، عبرَ بحر الشمال،
وتغنون، حول إفريقيا، ملحمةً
من حقيقةٍ وخيالٍ.
عَدَنُ أرضكم، وحرّان، والهند
قواديمُ سفنكم، والصواري ؛
وتقولون بعدُ: « صيدونيا الأُم،
وصيدونيا وراء البحار. »
منكم الفارسُ الرّضي يتحدّى
أُمَّةً تسترقُّ بُعدُ العوالم،
ترحف القارتان خلف جبال الألب،
في ركبهِ، إذا سلَّ صارمٌ،
رومةً دميةً له، وربى إيطاليا
الشخضر ملعبٌ لحصانهِ،
يكتب الفتحَ في مقدّمة الفتح،
ويُبقِي للدهرِ فضيلةً شانه.

(١) جنوبي غربي إنكلترا.

سِفْرُ حربِ ضاحٍ وقولُهُ حقٌ :
« لِينَانٍ تَلْمِذُ الْقَوَادِ،
كُلُّ يَوْمٍ مُحَجَّلٍ، بَعْدَ هَنِيْعَلِ،
وَمُضٌّ مِنْ سِيفِهِ جَوَادٌ. »
وكأنَّما يختصر المجد يقذف به بوجه قدموس ليخلص الى النهاية
المروعة

هو، يا ابنَ الصيدونيا، حَظُّكُمْ يَوْمًا،
تَهْزُونَ صَفْحَةَ الْأَرْضِ هَذَا !
وَتُقَلِّبُونَهَا، إِلَى الشَّمْسِ، فِي مَرْكَبِ
أَرْضٍ يَهْدِي إِلَى الشَّمْسِ أَرْزًا.
تَقْحَمُونَ الْمَجْهُولَ مِنْ سَاحَةِ الْفِكْرِ،
وَتَلْهَوْنَ بِالْخَفَايَا الْأَحَاجِي،
كُلُّ شَيْءٍ مِنْكُمْ. وَمَا أَنْتُمْ يَوْمًا ؟
لَأَنْتُمْ ذَكَرْتُمْ سَنَى فِي الدِّيَاجِي !..
مَشَدَّدًا عَلَى هَوْلِ النِّهَايَةِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَرْءِ

مَا لِعَيْنِي تَرَى لَكُمْ قَبَّةَ شُهَبَاءِ،
مَخْنُوقَةً بِخِيطِ مُعَارٍ،
أَجْفَلْتُ دُونَهَا الْجِبَالَ، وَيَكْفِيهَا،
لِتَنْهَدَّ، لَفْتَةً الْأَقْدَارِ.

إشْفَ، قَدموسُ، من طموحك.

قدموس

ما قلتَ ؟

وأختي ؟ وموعدِي بالنزالِ ؟

الاعمى

دون أمنيَّتْــــــــــــــــيك هولٌ.

قدموس

بعناد

وإذلالُ

شراعي، أَمْسَاءُ، ورَغْمُ رجالي ؟

الاعمى

المقاديرُ أو طموحُك، يا قدموس،

قدموس

بثقة

لا شيء في طريق الطموحِ .

قلت أنا سنقحمُ البحرَ والبرَّ،

نجرّ الفتوحَ تلوَ الفتوحِ،

ومن الموطن الصغير، نرود الأرض،
نذري، في كل شط، قرانا،
نتحدى الدنيا : شعوباً وأمصاراً،
ونيني — أني نشأ — لبنانا ؛
وترجي مني، أنا، الجبنة الأولى ؟
ترجي مني، أنا، الانهزاما ؟
ما يقول الغد المحجل عن قدموس،
يوم الدنيا لنا، أعلاما ؟
يوم تجني صيدونيا الزرقة الرحبة :
مجداً، مهابةً وحضارة،
ويرى الفتح فتحه كل قبر
فوق لبنان، والبحار بحارة !

البحارة الصيادنة

من الداخل

غربي، يا بحار،
شرداً بالأمل الغضّ.
ههنا، في آخر الأرض،
كرمة لي، ودار !

قدموس

هُمُ رجالي، وبعضُ عزم وراء النحر.

الأعمى

كأنما يستنزل اللعنة

لا طِبَّتْ، سيفٌ صيدون، بالا !

مهتداً منذراً

يطلع الفجرُ في غدٍ بومةً تنعق !

يخرج

قدموس

بومٌ ؟ .. يا ريحُ هُدِّي الجبالا ..

البحّارة الصّيادة

من الداخل

طَيِّعَ مركبي،

يقحم الغلابة الأمواج

ينزع التّبر، يسأل العاج

من دم المغرب !

بالنّاء، والشرّ،

هَدُّينا، واللفتة العليا،

نحن جئنا بهما الدنيا،
فوق جذعِي شجرُ !

ستار

الفصل الثاني

المشهد الأول أورب، الأعمى

الأعمى

مصطنعاً النصيحة

أَقْصِرِي فِي النَّحِيبِ، لَمْ يَبْقَ إِلَّا
أَنْ تَرَيَهُ

أروب

باستغراب وهول

أنا؟!

الأعمى

نصحتُ وجيهاً.

وَإِذَا السَّهْمُ كَانَ آخِرَ سَهْمٍ ...

أورب

مقرعة

كان، يا قلب، امرأةً ودموعاً.

الأعمى
شئت طعناً على الرجلولة.

أورب

أنى

لي، إذا شئت، أن أسلّ وأضرب،
وأنا الظفر قلموه، وقالوا :
« رُدَّ عن مشرقٍ، وقَاتِلْ لمغربٍ ! »

الأعمى

لو رشدت اهتززت للرأي، أورب.

أورب

وما الرأي؟.. أن أُحطّم حبي ؟!
دُمِيَّة صَغَتْهَا من الحُلُم الحلو
ورصَّعَتْهَا بِأَطْبَاق شُهْبِ،
عَانَقَتْهَا أُمْنِيَّتِي، قبل أن هَمَّتْ
بكونٍ وأُتِنعت في خيالٍ،

كانت التوق من ذراعي، إذا مُدَّتْ،
وكانت، إذا هجست، بيالي.
مَنْ مِنَ الْبُكْرِ الصَّيَّاتِ لَمْ تحلم
بزوش، ولم تُعَلَّ على اسمه؟
تناسى له المزاليج عمداً،
خوف إن تعف المزاليج ثديمه،
وإذا صار لي أنا — أنا وحدي ! —
جئت ترتدني إلى قدموسا؟
ظالم أنت !

الأعمى

لا، عروس إلهي،
لست أرضاك للشّمات عروسا !
تبصرين الربّات، في رفرف الأولمب،
يهزأن بالغرام الفقيد ...
يتمطين في الأسرة والخز،
وهزج الحلي، وكّس الورود ...
« أيّ أرض، يقلن، طفلة حبّ،
جرّأته على جمى الأرباب ؟

أُسِدتُ، سكرةَ الهوى، واستفاقت :
يا تراباً أشواقه للترابِ !
قهقهاتُ كيف الأسنّةُ في الوقع،
وكيف انتفاضةُ البُنيانِ !
يفعل الهزءُ في الجبال !
أورب

مستضعفة

لمن قلتَ ؟
وهزئي بي هَدْنِي وِبراني
متذكّرةَ وطنها الذي هجرته
شَرْقِي، أَيها الصَّبَا، علّ غُصْنًا
عند حصباءٍ، ما يزال وفيًا،
هجرتَه عصفورةٌ كان مَغْنَاهَا،
وكانت غرامَه العبقريّنا ؛
ما شكا مرّةً سَقامًا، ولا تتمم
في مسمعِ الليالي بَعْتَبِ،
وُجِدْتُ فَاكْتَفَى ، وما همّه
للغصنِ كانت أمّ للحضيضِ الجَدْبِ !

آيَةُ الْبَالِ حُبُّهُ ؛ راح يعطي،
 لا ارتضى قبضةً، ولا هو آثر،
 يسأل الخيرَ أن يكونَ، سواءً
 ناله المُجتديهِ أو نال آخرُ !
 موطني ذاك، فاحمليه على العُتبِ،
 إذا جئتِ موطني ذاتِ يومٍ،
 يا صبا، وانظريه ما زال يُضفي
 فوق جرحَيْهِ بَسْمَةً بَدَلَ لومٍ .
 هُزُّوْا بي، وصافحْ موطني عني ؟
 لَأَيِّ النَّبَالِ أُوْجِعُ وَقَعاً ؟ !
 لا مَرَدُّ !

الأعمى

محاولاً المِضِيِّ في إضعافها

إِلَّا التَّقَاؤُكَ قَدَمًا — وَسَ
 تقولين : « عُدْ بنا ! ضِقْتُ ذَرْعاً !
 أين من عَشَرَتِ مِيعَةٍ أُوْرَبِّ،
 وَمِنْ زَوْشٍ مُدْعَى قَدَمُوسَا ؟ ! »

أورب
قلت شقَّ الصَّوابِ، والحقُّ كلُّهُ؛
لا تَمَسَّ الأقداسَ، أعمى البيوسى !

الأعمى
معرضاً بضعفها
ساعدُ المرءِ، لو دريتِ، هو الحقُّ،
وما الناسَ والسَّواعِدُ مَرضى ؟

أورب
مُلِمَّةٌ الى قوَّة قدموس
قل، فما همَّ ما تقول على الغمِّ،
وإِما إن شِئتَ سيفاً فغُضّاً.

الأعمى
ويلك ! حُدِّي من مطمعٍ لم يرَ النُّورَ ،
ومن خفق أجنحٍ لم تهلَّ ؛
وارجعي في ركاب قدموس، لا أنتِ
افتتحتِ العلى، ولا هو ذلًّا.
ولخيرٍ تنازلٍ عن حبيبٍ
من رجوعِ القدموسِ حِمْلَ المَحاملِ؛

بسخرية

وتقولون — يوم تهزج صيدون،
ويمشي إلى السفين الساحل؛
وتموج الغصون من قِسم المكول؛
جذلي، إلى مطل الغروب — :
« هو هذا اليردها من إله ...
وهي هذي التسله من نوب ... »

أورب

رادة على تعريضه بأهلها
تصديات اليدين لسن خفوقاً
من فؤاد : يمضين هن، ويبقى ؛
صفقت للطلاء كف، ولم تخفق
ضلوغ ألا لما كان حقاً.

الأعمى

بعد ما خلتنى زعمت — ولا أملت،
عبر البحار، صيدون، زفدا —
أنا قصدي لو رحت تصحين من زوش،
وقدموس من وعى فتجدا.

أورب
كشّر النّصْحُ عن نِوب !

الأعمى

مصطنعاً العتاب

تجنّيتِ.

أورب
وما النّصْحُ لم يُجلِبْهُ حُبُّ ؟
عَضُدًا جئتُني، فهِضْتَ جناحي،
دَعَكَ لا لي قَوَى، ولا لك ربُّ !

الأعمى

مستأنفاً محاولة إضعافها
قسمةً فاكتفي.

أورب
شعرتُ. تشبّث،
أيُّها الحُلُم، بتَّ عند الشَّفيرِ.

الاعمى

مغرباً إياها بالاستسلام لقدموس
دربُ قدموس من هنا.

أورب
ويك ! دَعْنِي.

الْأَعْمَى
وقريباً يمرُّ.

أورب

مشيخة عما يدعوها إليه

يا أرضُ، دُوري !

المسحدر الثاني

أورب ثم مري

أورب
مُرَّةً لفتني الى النَّجْدَةِ الجوفاء،
والصدرُ بالفراغ يضيِّقُ ؛
أنا مرميةُ الطَّرِيقِ بَكَّتْنِي،
لبكائي وما هَدَّتْنِي، الطَّرِيقُ.
بين قدموسَ، سيفِ أهلي، ووحش الغرب،
واقِيَّ طعنةَ الخالداتِ،

مهجتي، إن نُسبتَ عرقاً، وزندُ الباسط
 النجمَ والسَّهَى لالتفاتي-
 يا لَسَهْمَيْنِ لَوْحاً فأذلاً،
 في سماواتها، عُلَى عُفوانِي.
 مَنْ يُصِيبُنِي أَقْلٌ لَهُ عِنْدَ قَبْرِي :
 « لِمَ، يا سَهْمُ، أَنْتَ دُونَ الثَّانِي ؟ »
 محطمة تكاد تسقط عياء

ما لِعَيْنِي غامِتا، ولِقَلْبِي
 أَثْقَلَتْهُ مَرَارَةٌ فِتْدَاعِي ؟
 وتراخت يدي تَلَمَّسُ لِحْناً
 كُنْتُهُ فِي الْمَدَى، فَأَلْفَتْهُ ضَاعاً ؛
 وَتَهَاوَيْتُ رَغْدَةً لِلْقَائِي
 هَذِهِ الْأَرْضُ، عِنْدَ وَقْعِي، أَرْضاً،
 مِنْنَةً، يَا دَقَائِقاً لَمْ تَزَلْ تَسْبَحُ
 حَوْلِي، لَا تَنْهَئِي الدَّهْرَ رَكْضاً.
 تدخل مري ففلاقيها كأنما تشكو
 عبثُ رُدِّهِ !

مري
 عَلِمْتُ.

أُورب

متفكِّرةٌ ثمَّ كأنَّها وجدت حلاً

أناةٌ

لم يَزَلْ أن أراهُ.

مرى

باستغراب وهول

أنت ؟!

أُورب

ونحيًا.

مرى

وتعودان ؟!

أُورب

بحسرة

ما عطفْتُ إلهاً

فوق زندي !

مرى

ولا هو احتلُّ دنيا !

مستطلعةٌ سِرَّ أُورب

رأيتُكَ الرأْيُ أم ركنتِ إلى آخر ؟

أُورب
لم أَسْمَعْ لآخر، عمري.
مرى

غير مصدقة
أَيُّ سَمٍّ !

أُورب
نفثه، أنا وحدي.

مرى
لست صِلًّا !

أُورب
بُدِّلته اليوم.

مرى
كأنما درت أَنَّ الأعمى هو الذي أقنعها
أدري.

أُورب
لا تقصِّيتني، عزمتُ فلا أرجع.

مرى
لا قلت

أورب

أو تكوني الرسولا.

مرى

باستغراب وهول أشدّ

أنا ؟!

أورب

مستعطفة متذكّرة

تستحلفينه بلبانٍ

طابَ طعاماً على فَمِينَا، وسُؤْلاً ؛

بليالي سهرتِها لم تبالي

طاوَلتُ أم دجث، إذا نحنُ كُنّا ؛

بيدٍ إن تضمَّ تورّدهُ عمراً ؛

وبقلبٍ ان يُعطِ يُسكنهُ ظناً ؛

بأغانٍ عندلِتها عند مَهْدِينَا،

فقاما على جناح اليمامِ،

أنْ دَعِ الضربةَ الغبيّةِ، قدموسُ،

فما كنتَ خنجراً في الظلامِ .

أنتِ أنتِ الوحيدةُ الوقعِ في قدموسَ !

مرى
رفقاً ! أنوءُ بالعبء حملاً،
أُطلبني العمرَ أمتنه على رجلكِ،
لا تطلبني إليّ الذلاً.
أنا علمته التمرّسَ بالمجدِ،
ولُقيّا الفرسان صدراً لصدرِ،
ومَحَطَّ العيون فوق، ودرّءَ السَّيلِ
يهوي بالراسياتِ ويذري،
وابتدارَ الجُلَى بأسبقٍ من جُلَى
كأنَّ عوجلَ القضاءِ بردٌ،
واقتحامَ اليموتِ لم يلتفتَ ظهراً،
ولا حُدَّ في العطاءِ بحدٍّ.
أتريني، أوروبُّ، أنقضَ قولي؟

أورب
ودموعي هذي؟ ونَحْمَشُ الخدودِ؟
وابتناسُ الغيماتِ والموجِ والشُّطَّانِ
في مدِّ طرفي المهدودِ؟
أهي أشياء؟ لا، وأفديكِ من أشياء
تَشْجِي شَجْوِي وتَأْسُو جِراحِي.
أذكرُها يوماً.

مرى

كأنّما لا تجد ما تقول

أحبّك !

أورب

بعتاب أليم

حقّا ؟

مستطردة

واذكّرني على ضريح الصباح
كان قصراً هذا الوجود، فكيف انهار،
والعمرُ سانشُ في فئائه ؟
وهوى بالعليّ من عُمْدٍ هيفاء
راحت أشلاء خلف مساءه.
نوّحت حيث كان زقزقة الطائر،
ما آنست كأمسِ صيحابا.
تنهر الثنّيات، كرّت على الأرض
ثقالاً أن لا تحري الترابا.
قُبَلَتْ هُنا، وسكُبُ دموعٍ،
وقدودٌ هناك، غتّ ليانا.
أيّهذي الانقاضُ، أوْديتِ بالحلم،
فهيلي من فوقه البيلسانا !

مرى

مَوْجَعَةٌ نَافِذَةُ الصَّبْرِ

رَأْفَةً بِي !

أورب

بعتاب

وَأَنْتِ ؟!

مرى

أُرَأْفُ مِنْ سَهْمِكَ .

أورب

كَأَنَّمَا شَامَتْ بَارِقَةٌ أَمِلَ

مَاذَا ؟ رَضِيتِ ؟

مرى

لَمْ أَرْضَ بَعْدُ .

أورب

بَعْدُ ؟! يَا طَيِّبَ مَنْ يَهْمُ بوعِدٍ ...

مرى

لَمْ أَقْلُ، لَا .

أورب

... وَمَا هُنَالِكَ وَعْدُ !!

مرى
أَوَتَرْضِينَ لِي بِهَا، إِنْ أَنَا أَرْضِي؟

أورب
أَنَا اخْتَرْتُ بَيْنَ شَرِّينَ.

مرى
كَفِّي.
كَلَّمَا رُحِتِ تُقْنِعِينِي، شَعَرْتُ السُّمَّ
فِي بَسْمَتِي لَهُ، قَبْلَ كَفِّي.

أورب
أَوَأَدَمِي مِنْ مُرْتَمَائِي أَنَا أَلْقَاهُ؟
مَاذَا! وَيَنْطَوِي الْيَوْمَانِ؟
عَهْدُهُ هَهُنَا، وَعَهْدِي بَدْنِيَا
زَوْشَ، وَالصَّفْوَى، وَالْهَوَى، وَالْأَمَانِي!
كَانَ لَا بُدَّ مِنْ هِنَاءٍ يُضْحَى،
فَلِمَ اثْنَانِ؟!

مرى
لَا ظَلَمْتُ مُرَادِي.
لَمْ يَفْتَنِّي أَنْ لَوْ تَرَاوَجَ قَدَمُوسُ
لَكَانَ السَّوَادُ بَعْضَ سَوَادٍ.

وَبَقِينَا : أَنْتِ الْمَلِيكَةُ فِي زَوْشِ،
وَأَمَّا أَنَا ...

أُورَبْ

كَأَنَّمَا تَرِيدُ وَقْفَهَا

مَرَى !

مَرَى

... فَخَوْوَنَّةُ ،

زَيْنَتْ خَفْضَةَ الْجَنَاحِ ، لِنَسْرِ
شَكَّ فِي مَلْعَبِ النُّجُومِ جَبِينَةَ.

أُورَبْ

مَنْ ؟ مَرَى، مَنْ سِوَاكِ يَرَأْفُ بِي بَعْدُ ؟

مَرَى

بِرَجَاءِ

حَنَانِيكِ لَا !

أُورَبْ

مَرَى، رُحْمَاكِ !

وَكَمَنْ أَثَلْتُ إِقْنَاعَهَا تَرُوحُ تَغْرِيبَهَا بَأَنَّ تَدَلَّهَا عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي
سَيَسْلُكُهَا قَدَمُوسُ

هذه دربه، وقبل بُزوغ الصُّبح.

مرى

مُشيحة بدورها عمّا تدعوها إليه

سُمّرت، دَوْرَةَ الأفلاكِ !

اليوسى غداً أغاريذُ نصرٍ
حول تَنِينِها، وهُزْجُ نساءٍ،

وفتى الشرق مُوَحَّدٌ، لا قُدُودٌ
راقصاتٍ لسيفه المعطاء.

أولن يستثيره، يا ترى، الشوق،
ويشهى كأنّ الى صيدون،

ويقول : « اصعدي إليّ دُفوفاً
ومزاميرَ واشهدي ليْمينِي » ؟

فيراني ألقاه مقروحة الأجفان،
ندّابةً أحرُّ الجَلامِذِ ...

صارخة كأنّما استشعرت أنّها إنّما تكلمت مقتنعة
لا ! وجُمّعن بي، نساؤك، صيدونُ،
غداةً ابْنُكِ استطاب الزَّغاردُ.

أورب

بيأس

أنا رِيحانةُ الخريفِ شَجاني
نبأ الغيب مُرَّقةً أَسْأَرُهُ،
غدِي الزمهريرُ إن قلتُ أبقى،
وربيعٌ أَمسي يَهْدُ اذْكَارُهُ.
كان أيارُ وافتراضي في السَّوفِ،
ويأتي الآتي وأحلاه فُضًّا،
لم يزل لي إلّاكَ، يا صُفْرُ اوراقِ،
فَطِيبِي كحلاً لعيني، وغمضاً.
واغمريني، فانت أحنى على الأرضِ،
وأبقى من كلِّ رَفٍّ وهَلٍّ،
أُعلَى سؤلُهُم ! وما بكِ من فقْرٍ،
فظلّلي فريدةً دون سُؤلِ.
بقيتُ خطوةً إليه، وثُحكي
قصةً من خُرافةٍ ومُحالٍ !
قيل : « كانت إلهة. » وانتهى القول !
فيا طفلةً لَهْتَ بظلال !!

نافذة الصبر

ما لقدموسَ لم يُطْلَ؟

مرى

كأنما تستيقظ من غفلة

كليه

لي. رضيتُ التقاءه بدموعي.

أورب

كأنما لا تصدق

أَوْحَقًّا !

مرى

طبيبي — فديتكِ ! — نفساً
واطمئني إلى جريحِ ضلوعي.

تعانق أورب

أورب

قادمٌ من هناك.

مرى

طلعةُ قدموس !

أورب

قبل أن تخف إلى الكهوف التي سوف تختبئ فيها
تسملت، يا مري، آمالي.
ليس إلا يداك بعد : تشاءان،
فصبح غدي، ولا، فليال.
واحذري لا يخثك لفظ كحد السيف
يفري، أو كالتعلات يفري،
إن يفت قولك النفاذ إليه،
فأنا ههنا لأفضح أمري،
وتكونين أنت سلمتني

مري

ربي !

أورب

وتحيين من يدك . بشأن !
كلما هممتا تراءى لك الإثم،
فأجفلت منهما تلحقان !!
تلجأ إلى أحد الكهوف

المسحدر الثالث

أورُب (مختبة)، مري، ثم قدموس

مري

رأفةً بي ! وهمتني جلمد القاع،
ولي — من مُصدّقي ؟ — بعضُ قلبي،
يصدم الصّخرَ في الليالي فيرنو
قائلاً : « هل أصبْتُ صخرًا بكرب ؟ »
ذدتُ عن ركبتنا إلى الشّمس بالغضبة
جاشت في صدري المكلوم،
لستُ فيهم، فهل أقلُّ من الإيمان
بالفاتحين أرضَ النّجوم ؟!
هو قدموس ! ما أقول لقدموس ؟!
وهل في الوجود غيرُ الحقيقة ؟
شيمةُ النّبرة العليّة في أهلي،
وفي تلكمُ الجبال الطليقة،
طوّقونا بها قلائدُ حُسن،
وزَهّونا بها على كلِّ شاهق،
ربّ ان خنتها فلا خفقت نارُ
بصدري، ولا نِعمتُ ببارق !

بعتاب لنفسها مرير

ويَحْ أَوْ رَبِّ ! ما أَرَادَتْ وما نالت ؟

خداعاً مِنِّي لِنَفْسِي العَلِيَّةُ ؟

وكلاماً يُنَمِّقُ الزُّورَ فِي عَيْنِي

وَيُودِي بِالْمَكْرُمَاتِ السَّرِيَّةُ ؟!

لِمَ، يَا قَوْلُ، ما عَيَّيْتَ عَنِ الْقَوْلِ،

وَلَا رُحْتَ شِمَةَ الصَّخَرِ شَهْمَا ؟!

شَرُفُ الصَّخَرِ أَنَّهُ الْقَبْرُ لَا يُنْطِقُ،

حِينَ الْقَوْلَانِ تَجْأَوِبُ أَعْمَى.

ما الْحَيَاةُ ؟ انتباهةٌ مِنْ فَتَى سَكَرَانَ،

عَارٍ، مَشْوَاهِ الْقَسَمَاتِ،

وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى حَالِهِ، فَاَنْهَالَ

شَتْمًا عَلَى الصَّبَاحِ الْآتِي،

ثَمَلًا ؟ كَانَ. وَالَّذِي يَلْطِمُ الْآنَ

جَبِينًا كَمَنْ يَحْطُمُ آئَهُ،

لَيْسَ فِي سَكْرَةٍ وَلَا فِي خَبَالٍ :

بَشَرٌ مَجَّ لِلْبَلَى انْسَاءَهُ !

يَدْخُلُ قَدَمُوسٌ فَيَصْدَمُهَا تَقْلِدُهُ السَّلَاحُ

أَسِلَاحٌ، قَدَمُوسٌ، وَالْخَصْمُ أَفْعَى ؟!

قدموس

معرضاً بها هي وقد تواطأت مع أخته على الهرب
عدتُ أخشى، مري، نيوبَ الأفاعي !

مري

لنفسها

ربّ !

لقدموس

والعهدُ بالنُّزولِ الى السّاحات
كالحقّ، أعزلاً، والشُّعاعِ ؟

قدموس

كان.

مري

مَنْ ذا يقولها ؟ أَنْتَ، قدموسُ !؟

قدموس

مستمراً في التعريض بها

وعَمَّنْ أَخَذْتُ نُقْضَ الْعُهُودِ ؟
أَقْصِرِي ! فِيمَ جِئْتِ ؟

مري

أَسْأَلُ حَقَّ

العبد — فأرأف به — على المعبود.
ما أنا من تروغ، أو ترتضي الزور :
أنا جئت أطلب المستحيلا،
أنا أدري أن ليس يُعطى، وإن تجعله
صيدون سُؤلها المأمولا،
مطلب ذل مجتديه ومعطيه،
وجرح لخاطر يستعيذه،
ولمهما تحط مني أعلم
ما لبان أرضعته — فأريذه !

قدموس

بُهَلَع
تطلبين انكفاء صيدون ؟!

مرى

لا قلت، حنائيك، لا !

قدموس

لمن تعملينا ؟

مرى

إسمعي، يا طويّتي، ظنّني خنت.
وقدموس، ما خفضت جبيننا،

وبلادي — أنا ! تراها هو الكُحْل ؟

قدموس

كأنما يخاطب نفسه

لها نبرة البريء أُصييا !

لمرى وقد عاوده احتياجه

ويثيرُ الضميرَ ما طلبتُ مني !

تمزّقت، يا قناعاً كذوباً،

حسبنا رشفة من الكأس، هل ألفت

في الكأس غير سَمٍ ناقع ؟

رَبِّ أفعى كسوتها ثمن الخبز

حريراً، وبات طفلك جائع !

مرى

بتجلد

أعطني، رَبِّ أَنْ أَغالبَ صوتَ الدَّمع

صبراً، وإنَّ أنا اشتقتُ دمعاً،

فبكاءً ويكفهرُ صفاء العيش

أندى من الهناءات وَقَعاً.

أُخنقي مِنْ أَساكِ، يا عَبراتي !

لقدموس موقظة منه تذكارات الطفولة

هل يقولُ الماضي لقدموسَ شيئاً ؟
ما أنا اليومَ في الوجود، أنا في الأمس :
لبنانُ في مدى عينيَّـا،
ذاك قدموسُ دارجاً عند بابي،
وذراعاه مُدَّتَا لعناقٍ ؛
من رأى يا تُرى ؟ أَمَنْ تسهر الليل
عليه أُم ... رَمَّةٌ من نفاقٍ ؟!

قدموس

متأثراً، نافد الصَّبْر
لا، وتُفدِّين، لا تقولي ! تهاوى
كُلُّ ما بي من شاقٍ تَبَاهِ،
وبَكَاني الطفلُ القديمُ.

مرى

بعتاب وحبّ وعبادة

تجنّيتُ،

رضياعي، وسيّدي، وإلهي.

قدموس

بِبحيرة

مَنْ تُرَانِي مَرَجَحاً حِينَ اخْتَارَ :
مِرَى الشَّهْبِ أَمْ مِرَى الْأَوْحَالِ ؟
صَفْحَةً تَعْبَقُ الْكَرَامَةَ مِنْهَا
أَمْ صِرَاطاً يَجْرِي وَرَاءَ الضَّلَالِ ؟

مِرَى
لَمْ تَزَلْ وَاجِداً عَلَيْهَا وَيَكِي
لَأَسَاهَا، لَوْ يَنْطِقُ، الْجُلُودُ ؛
غَدُّهَا ...

قَدَمُوسُ
أَه ! حَبِّدَا غَدُّهَا يُطَوِّى،
وَتَبْقَى هَذِي النُّجُومُ السَّوْدُ !

مِرَى
أَنْجُومٌ مِنْ بَعْدِ أَوْرَبْ ؟ !

قَدَمُوسُ
مَنْ أُوْرَبْ ؟
مَاتَتْ مُذْ وَدَّعَتْ لِبْنَانَا !

مرى

لم نودّع ما بات في الصّدر حبّاً،
حيثما الحبّ كان، لبنانُ كانا.
دعك لا تحفلِ الحفيظة، قدموسُ،
ولا تجتدِ السّلاحَ البوارا.
يعدلُ الحُكم يومَ يصلحُ أهْلوه،
فما همُ ضغينةٌ واثّارا.

قدموس

وقد عاوده حُنفه عليها
أنتِ ؟ ما أنتِ والتّبجّح بالعدل ؟
تُرى العدل عاد دُميّة لاعِب ؟
لفظةٌ في فم الأثيم ؟! ألا يخجل
أعمى يرنو إلى الشمس، كاذِب ؟!
كان لي بعضُ رحمة فاستحالت
مذ نكأتِ الجراح حِقداً وثارا،
وإِحال الهوى توخّش في صدري،
فأنشبتُ في الهوى أظفاراً.

مرى

لنفسها

رَبِّ، أَمْسِكْ بِهَا ! فَلَ لَقِيَّتْهُ
وَحَشَّ غَابِ.

لقدموس

عهدي بقدموسَ أَعْلَى.

قدموس

إِنَّمْ أَوْرَبَّ حَطَّنَا مِنْ عُلَانَا
وَكَسَا أَرْضَنَا، عَلَى الدَّهْرِ، ذُلًّا !
تظهر أَوْرَب من مخيئها نافذة الصَّبر على رزاة

مرى

رَبِّ ! عُمَرُ الإِلَهَةِ الْآنَ ...

أَوْرَب

عُمَرُ !

مَاءُ وَجْهِي أَعَزُّ عِنْدِي وَأَبْقَى،
أَغْمِدِ السَّيْفَ فِي فَوَادِي يَقْطُرُ
شَرْفًا، عِنْدَمَا يُسَلُّ، وَخُلِقَا !

قدموس

ويكون قد حاول سَلَّ سيفه، فيعيده إلى غمده
لا ! وسيفي يَعْفُ عَنْ طَعْنِ أَنْثَى.

أورب

متحدية كأنما تريده إلى قتلها

أبأ ؟

قدموس

بغضب

بل سخا.

أورب

بغضب رزين

رددتُ السَّخَاءَ !

لستُ أحتشئ، قدموس، سيفك فاضرب ؛

ما صباحَ أهنته، وأضاء ؟!

قدموس

وبلاد هجرتها !.

أورب

دعك منّا.

بين طير وعُشَّها أسباب،

كلَّ يومٍ لها طوافٌ بدنيا،

والطَّوافُ الأشهى إليها الإياب !

أنا أورب، عُد بأروب، قدموس،
ولا يَقْتَل بي الوطنان.

قدموس

إنطقي بأسم واحد.

أورب

لا. وهذا

وطني بالهوى، وذاك نَماني.

قدموس

لستِ منّا !

أورب

رُحماك !

قدموس

رُحمي لمن تَخْفِضُ

أُمجادها وتَنسى الودادا ؟

أورب

دامعة العينين

ضِيقُكم بي ؟! ورحمةً من بلادي

تَسع الأرضَ حيَّها والجَمادا !

قدموس

أبلاذ عُقت، وظلت على العهد؟!

أورب

بلادي أنا، ولبنان عهد!

ليس أرزاً، ولا جبلاً، وماء؛

وطني الحب، ليس في الحب حقد.

وهو نور فلا يضلّ: فكّد،

ويّد تُبدع الجمال، وعقل.

لا تقلّ: «أمّتي»، وتجتاح دنيا؛

نحن جارّ للعالمين وأهل!

قدموس

عبث: لا أعود أو يُقهرّ الغربيّ

أورب

بهول كأنّما تتوقع ما سوف يقول

لا لا، تضلّ!

قدموس

أهوى الضلّالا!

أورب

وتكون قد أشاحت بوجهها عنه وهو يقول : « أهوى الضَّلالا » ،
وتجديفه هذا على المعرفة انما يطعنها في الصميم .

يَمْ تَفْوَهَتْ ، يَا أَخِي ؟! عَقَّ صِيدُون ؛
وَعَيَّضُ أَنْهَارَهَا والجبالا ،
واشربِ الخمرَ في جماجمِ أهليها ،
ودُسْ تاجَهَا ، وذُلَّ السَّريرا ،
وازرعِ المِلحَ حيث مَاتت فما تحيا —
ولا تذكِرِ الضَّلالَ فخورا !

قدموس

وَيْمَ الفخرُ ، بعدَ أورب ؟

أورب

بالرَّحمة

سَطَّرَتَهَا سَخِيًّا شَفِيقًا ،
تَأْخُذُ الْعَالَمِينَ بِالرَّفْقِ وَالطَّبِيبُ ،
وَبِالْهُدْيِ ، إِنْ يَضِلُّوا الطَّرِيقَا .

قدموس

أَيَّ عِرْقٍ فِي الْغَرْبِ يَنْبِضُ بِالرَّفْقِ ،
فِيْجْزَى الْجِزَاءِ حُبًّا بِحَبِّ ؟!

أورب

أَيَّ صِيدُونِي تَرْبِي عَلَى الْبَغْضِ،
فِيحْيَا لِلثَّأْرِ ضَرْباً لَضَرْبِ ؟!

قدموس

عَلِّمُونَا، فَسَوْفَ نَضْرِبُ بَعْدَ الْيَوْمِ.

أورب

عَارٌّ مَا قُلْتَ، قَدَمُوسُ، عَارٌّ.
قُلْ : « بَلِ الْخَيْرُ أَنْ نَعْلَمَهُمْ نَحْنُ،
فَمَا عَلَّمَ الْبِنَاءَ الدَّمَارُ ! »

المقاتلة الأغارقة

من الدّاخِل

طَابَ طَابَ الْقِتَالُ !

وَاجْتَدَى الْيَوْمُ قَصِيرَ الْأَجَلِ،

ضَجَّ، يَا فَجْرُ، وَقَلْ لِلْأَزَلِ :

نَجْمُ صِيدُونَ مَالًا !

مَا لَهَا تُطْرَقُ،

مَذْجَرَى الْغَرْبِيِّ، هَذَا الْجِبَالُ ؟

وَأَمَحَى عَنْ جَانِبِيهِ الْمَجَالُ !

وَأَمَحَى الْمَشْرِقُ !

نحن، يا شرق، لا
ننشئ، أو نقهر المركبا ؛
غُلٌّ بحرًا، وافتتح كوكبا،
ثَبَقَ دون العلى !

قدموس

وقد تحدّاه الأعمى بنشيد الأغرقة
واجبي.

أورب

في محاولة أخيرة كأنما تراب بلادها أقدس ما تستحلفه به
لا، وتُربِّ صيدون، لا تحفلْ

قدموس

رادًا استحلافها، مشدّدًا على عظم الواجب
بلى واجبي دعا.

أورب

منكسرة

لا تَسْرِعْ !

واتّعدّ عندما تردُّ ذراعاً ؛
رُبَّ قلب خلف الذراع تقطّع.
عُدْ بنا، يا أُخَيَّ، ها أنا أُرْجِعُ.

معاذَ العُلى الرُّجوعُ بمرأه،
 والنِّزاعُ اغتدى نزاعاً على الدُّنيا،
 وحُكَّتْ بجُرأتِي كُلُّ جُرأةٍ !
 هُمُ أرادوه دامياً، فليكنْ أدمى،
 ويفصِّلُ على كُرور الزَّمانِ،
 بينَ سَيْفِ أَهْلِ اعتداءٍ وسَيْفِ
 هادمٍ حده، وبالهَدمِ بانِ.

ستار

الفضيلة الثالثة

المستحضر الأول

مِرَى وَحْدَهَا

محاولة تشدداً

لا، ولبنان، ما نَمَشِي جبال
كَرُمْتُ فازدرتُ من الناس لَوَما ؛
لا، ولا عزيمةً بمجذاف طفلٍ
حالِمٍ كيف يُلجِمُ البحرَ يوماً ؛
آنَ أَشْرَفْتُ مِنْ بعيدٍ على الوحشِ،
وبني بعضُ رِيشَةٍ واهتياجٍ،
في الشَّعاب الرَّمضاءِ من بطن وادٍ
مُدْلِهِمَّ كما المائِمُ داجٍ .

لم أَكُنْ بِسْمَتِهِ فَأَعْتَادَ مَرَّاهُ،
 وَيَا هَوْلَ مَا تَصَدَّى لِرَأْيِ !
 ذَلِكَ الْغَرْبُ مُسْتَحِيلًا إِلَى الصَّبَلِّ،
 غَوِيًّا بِالْمِخْلَبِ الْمِعْطَاءِ.
 خَفْتُهُ — عَفْوُ رُذُنِ قَدَمُوسٍ ! — يَهْوِي
 فَوْقَ قَدَمُوسٍ، ضَافِي الْجِسْمِ، طَوْدَا
 سَاحِقًا، مَاحِقًا، يَكَادُ حَضِيضُ الْأَرْضِ
 يَخْشِي لَهُ، إِذَا مَرَّ، عَوْدًا.
 مَا دَهَاءُ الرِّجَالِ ؟ مَا الْغَضْبَةُ الْمُثَنَافِ ؟
 بِالْ مُعْطَّلٌ مَسْحُورٌ،
 أَيُّهَا الْغَرْبُ، هَاتِ مَا لَيْسَ بِالضَّخْمِ.
 كَبِيرٌ ؟ بِالْعَقْلِ أَنْتَ كَبِيرٌ !
 رُبَّمَا رُحْتَ تَقْهَرُ الْأُمَّةَ الْحَفَنَةَ
 أَرْضًا، وَالْعَبْقَرِيَّةَ أَفْقًا،
 فَاخْشَهَا، عَهْدَ قَوْلِهَا الْقَوْلُ، هَبَّتْ
 تَتَقَاضَاكَ، أَيُّهَا الْغَرْبُ، حَقًّا !

يَشْتَدُّ تَشَاؤُمُهَا

لَمْ أَخْفِ، لَا أَوْرِيَّةٌ خَامَرْتَنِي
 أَنَا جَسَمْتُهَا فَحَرَّتْ ضِلُوعِي.

ولم الليل في شُعاة عيني ؟
وعلام الجفاف طي ريعي ؟
من أسر احتمالة الخسف في روعي
وقال : « انتهى غداً ، قدموس » .
توأم العزم ، حامل الشر الأول
يهوي ، وفي الوجود شمس ؟ !
سوف نبقي ! يشاء أم لا يشاء الغير ،
فاصمداً ، لبنان ، ما بك وهن !
سوف نبقي ! لا بد في الأرض من حق ،
وما من حق ولم نبق نحن !

المسحدر الثاني

مري ، أوروب

أوروب

بتقريع
إطمئني بالأ ، مري ، اشتبك القرنان .

مري

رُحماك ، لا تريشي السهاما !

أُورب
أنا ؟ مَنْ لي بها فَأَرْسَلَهَا تَفْتَتْ
من مهجتي دماً وعِظاماً !
متذكّرة نزول قدموس إلى السّاحة
رمقته عيني، فيا بؤس عيني !
يقحم الموت، عهدّه وهو قانص،
يضحك الضّحكة المُرّة كالشّهم،
ويجري كَرَعْدَةٍ في الفرائص.
حمّل الرّيح وقعه، أنا قلتُ الشّطّ
يُصغي، والبحرُ يعرفه هَمْدُ،
والصّباح المسفوح في جَمَمِ الأمواج
يعلو، كَمَن أطلّ، ويشدو.
داس ضَرَعُ الإغريق قدموسُ ثَبْتاً،
عبقريّ الهَمّاتِ، طَلَقَ المُرادِ،
لم يَزِنْ خَصْمَهُ، ولم يَزِنِ السّاحةَ،
كالطّود لم تُخَفِّهُ عَوادِ.
ومشى، مسحة السّنى، هل نضا سيفاً ؟
وهل سَلَّ خنجراً من حزامه ؟
لا، وروعُ الثّنين يَغلي وعيناهُ
مهاوٍ من القلى ومهامه،

يتمطى تهتؤ الحامل الضاري
وتجواب طيع الجسم، ضامر،
يضرب الأرض بالجناح وبالذيل،
كما يقحم المحال مكابر.
قال قدموس: « ها أنا ! » واحتواه
بذراعيه.

مرى
أكملي، ضاق صدري !
أورب
لم اشأ أن أخط في الأوجع الطرف،
فروحي اشهديهما، عند قبري !

المسحدر الثالث أورب وحدها

نؤت، نفسي، بالعبء، فاعتمدي الأرض،
أما هزنا إليها الحنين ؟
وانتحي مطرحاً من الصخر حشناً ؛
رُبَّ صخر، عند الشكاة، يلين.

ربُّ، ما نفحةُ السَّعادةِ في الأرض ؟
 ضُحِيَّ خاطِفٌ يزور النِّيامَ ؛
 حُظُّهم منه مطمَعٌ بالتَّلَاقِي،
 فإن استيقظوا غدا أحلاما .
 أنا خِلْتُ الحَيَاةَ مَدَّ ذراعينِ
 إِلَيْهَا، ورَشَّفَ ثَغْرِ جَمِيلٍ،
 واكتحالاً بالصَّخُو والأملِ الطَّلَقِ،
 ومَرَّاً في خاطر المستحيلِ .
 ضجعةٌ فوق أضلعٍ واجداتٍ،
 وقياماً على سَنَى وأريجٍ،
 ضاحكاً وجهُها لِجُبوحةِ العمرِ،
 على رَتَّينِ من دُمْلُوجِ .
 فتبدَّتْ جوفاءَ كالقبرِ، إلَّا
 من مخيف الأطياف والأشباحِ،
 خفقةٌ شابها دَمُ الأجنحِ البِيضِ،
 ونفخٌ عَراه موتُ الأفاحي .
 ليتني رُحْتُ لم أَضِقْ بهما ذُرْعاً،
 وحُمُلتُني كُرُورَ ثوانِ،
 أشهدُ السَّمَّ كيف جَوَّده اثنانِ
 لكأسٍ هما بها ثَمْلانِ .

تَوَاقَّةٌ إِلَى جَسِّ الْمُسْتَقْبَلِ
 مِنْ مُزِيحِ الزَّمَانِ عَنْ عَرْشِهِ الْغُفْلِ،
 وَمُسْتَصْرِخٌ، مِنْ الْغَدِ أَتْفُ،
 عَلَنِي أَفْجَأُ الْغُيُوبِ سَلَاماً
 قَبْلَمَا تَغْتَدِي طُبَّى وَأَسِنَّةً.
 أَيُّهَا الْأَنْتِظَارُ، يَا صَفْحَةً مِ الْعَمْرِ
 حُبْلَى بِكَلِّ مَا لَيْسَ يُقْرَأُ،
 صَخْرَةً عَبُوثُهَا عَلَى الْآنِ شَدَّتْهُ
 إِلَى بَعْضِهِ، فَسُورَ دَهْرًا!

الْمِسْحَدُ الرَّابِعُ

أُورَبُ، الْأَعْمَى

الأعمى
 سَلَّ سَيْفًا قَدَمُوسُ مَا حُدَّه حُدُّ،
 وَحَامِيكَ مِثْخَنُ بِالْجِسْرَاحِ -
 أُورَبُ

لَا تَخَفُ أَنْ تَقُولَ: «مَاتَ!» وَلَمْ يَتَّقِ
 لِعَيْنِي مَطْمَعٌ بِصُبْحٍ!

الأعمى

لم يَمُتْ فأنْجِدِيهِ !

أورب

ويَحْكَ ! ماذا ؟

أَوْ أَغْدُو مِنْ خَلْفِ قَدَمَوْسَ خَنْجَرٌ ؟ !

الأعمى

إِنَّمَا ذُذِتْ عَنْ حَيَاتِكَ، أَوْرَبُ،

إِذَا ذُذِتْ عَنْ دَمِ رَاحِ يُهْدَرُ.

أورب

فِيمَ تُغْرِي يَدِي بِسَفْكِ دِمَائِي

وَأَنَا رَحْتُ مِنْ يَدِي أَتَبَرًا ؟

يَوْمَ دَلَّتْ عَلَى الْبَسِيطَةِ قَدَمَوْسَ

وَخَلَّتْ، أَتَى تَحَطَّمْتُ، ذِكْرِي.

الأعمى

أَيُّ ذِكْرِي وَمَا وَفَيْتِ بَعْدِي !

أورب

لَحَبِيبِ !

الأعمى

لا بل لحامي حماك .

أورب

يا لوحشٍ يبغي انتصاراً لوحشٍ !

الأعمى

بل حِفاظاً على كذابٍ هَواك .

أورب

بتفجّع وحسرة

هكذا، يا هواي، لوحّت تُغريني

بعمرٍ أغنيّةٍ الأدهار !

لم تشأهُ إلا لتستُرَ عيياً

هو ظفّر، ولا كظفر الضوّاري .

الأعمى

من تُرى أشعل الوغى ؟

أورب

هَبْهُ قدموسَ،

أأقضي أنا على قدموسا ؟!

أَخَّ قَاتِلْ أَخَا وَيْرَى نَوْرُ ؟
أَلَا دُمْتُ، يَا دُجَى، لِي أَنْيْسَا !
وَتَمَزَّقَتْ، قَبْلَ أَنْ طَبْتُ فِي ثَغْرَيْنِ،
يَا قَبْلَةَ الْغَرَامِ الشَّهِيدِ ؛
لِلْجَفُونَ الْمُقَرَّحَاتِ، سَتَبَقَيْنِ،
وَاللَّدْمَعِ حَافِرًا فِي الْخُدُودِ.

الأعمى
لَوْ تَصَبَّرْتَ وَسَعَ بَوْسُكَ، فَالْأَقْدَارُ
عُمِّيُّ، تَحِبُّو وَتَمْنَعُ.
أُورَبْ

تَحْبُو !
يُقْرَأُ الْفَجْرُ فِي غُيُومِ الْعَشَايَا.

الأعمى
وَيُلَاقِي، قَبْلَ الْهَنَاءِ، الصَّعْبُ.

أُورَبْ
فَلْيَكُنْ مَا يَكُونُ ! أَحْيَاكِ أُمَّ لَا،
يَا حَيَاتِي، فَمَا أَنَا لِأُبَالِي.

الأعمى

محبباً إلى أوروب العيش، قصد استخدامهما في ردّ قدموس
أنت، أوروب، تكفرين، بنعمى ؟
أنت، يا نجمة تمرّ ببال.
أيها الحسن، سكّ من سكّ الشمس،
وقال : « ازدهي على كلّ حسن .
واخلي حبّ القلوب، وضجّي،
في تشيّك، بين ريف وجفن .
أنت للتّاج، للتحرّش بالأولمب،
للعزف طار بالأوتار،
ولأرضٍ جاءت إلى الكون، مذ جئت
على سحجة من الأطيّار .
أو أشهى من الحياة ؟ !

أوروب

بلى، أعمى

اليوسي : استهزأنا بالحياة !
يوم تغدو الحياةُ قسمةً حرّ
حملوه للغدر سيف الجناة .

الأعمى
مَنْ سِوَاكَ الْآثِمِ ؟ تَحِيَّينَ حُلُمًا
يَتَخَطَّى الدُّنَى، وَنَحْنُ نُقَاسِي !

أُورِب
مَا غَوَّثَنِي الْعُرُوشُ، يَوْمًا، وَلَا السُّودُودُ:
أَحْبَبْتُ فَاسْتَشَرْتُ السَّرَاسِي.

الأعمى
أَقْصِرِي ! كَرُّ ثَانِيَاتِكَ مَعْدُودٌ،
وَدُنْيَاكَ خَطْفَةٌ فِي الزَّمَانِ.
لَكَ أَمَّ لَا رَأْيٍ فَقَرِّي عَلَى رَأْيٍ ؛
وَلَاتِ الْبُلُوغُ بَعْدَ التَّوَانِي !

أُورِب
وَتَيْكَ ! مَاذَا تَرِيدُ ؟

الأعمى
حَجَبَ دِمَاءٍ.

أورب
كيف ؟

الأعمى
رُدِّي عَنَّا الكَمِيَّ العنيدا.

أورب

هو يَأْبَى.

الأعمى
دوسي الأبَيّ، اقتليه.

أورب

بهول وُحْبّ

هو قَدَموس !

الأعمى
لا تُقِمِّي حدودا.

السُّحْرُ الثَّامِسُ أورب، الأعمى، مری

مری

وقد سمعت قول الأعمى
أَلْقَمِيهِ الْجَوَابَ !

الأعمى

كأنَّما يترّ مطلبه

أَيُّ جَوَابٍ ؟

صَرَغَ الْوَحْشَ وَحْشٌ صَيْدُونَ جُبْنًا !

مری

لا ! وَكَانَ الْخَصَمَ الشَّرِيفَ فَعَالًا ؛

رَاحَ يَأْسُو جِرْحَ الْجَرِيحِ ، وَيُعْنَى ،

وَكَمَنْ بُكَّتْ ائْتَحَى ؛ قَلَّتْ أَسْيَانُ ؛

وَقَلَّتْ احْتِرَامَ نَدٍّ لِنَدٍّ .

وَتَمَنَّى لَوْ يَنْهَضُ الْجَبْلُ الْمَوْتُورُ

يَحْبُوهُ بِالْجَوَابِ الْأَشَدِّ .

كَادَ يَرْضَى بِالنَّصْرِ ، لَوْلَا هُتَافُ

خِلَتُهُ الدَّهْرَ صُدَّ عِنْدَ الشَّفِيرِ :

« هَيْتَ، قَدْمُوسُ، طِرْ وَأَنْجِزْ عَلَيْهِ
 فَضٌّ وَازْرِعْ أَضْرَاسَهُ فِي الصُّخُورِ
 تُنْبِتِ الْأَرْضُ مَارْدِينَ عَلَى يَنُونَ
 رُثِيَا أَعْجُوبَةً الْأَجْيَالِ.
 تِلْكَ أُولَى حَوَاضِرٍ مِئَةٍ تُبْنَى
 عَلَى اسْمِ الْقَدَامِسِ الْأَبْطَالِ. »
 عَفَّ، لَوْلَا أَنْ عَاوَدَ الْخَصَمَ عَزْمُ،
 وَكَمَنَّ هِجَّتْ أَصْبَعًا فِي جَرَاخِهِ،
 سَلَّ مِنْ ضَعْفِهِ قَوًى، وَأَتَى قَدْمُوسَ
 فِي جَهْمٍ ثَارِهِ وَوَقَاجِهِ.
 رَدَّ قَدْمُوسُ عَنْ سَخَاً.

أُورُب
 أَوَّارْدَاهُ ؟ !

مَرَى
 تَشْكِينٌ ؟ شِمْتُهُ اسْتَلَّ عَضْبًا،
 مَا اسْتَطَابَتْ عَيْنَايَ إِنْ تَرِيَا الْقَتْلَ،
 وَعِغْتُ التَّقَاءَ حَامِيكَ كُبَّا.
 الْأَعْمَى

أَوَلَمْ تَشْهَدِيهِ يَسْقُطُ ؟

أُورب
ما هَمَّ ؟
ويكفي أن سلّ قدموسُ سيفاً.
كأنّما لا يزال يؤمّل أن يكون الوحش على قيد الحياة
ربّما ... فانهدي.

مرى
إلى أين أُورب ؟
إلى حيثُ يعدلُ الحيفُ حيفاً.

أُورب
موقنة أن أُورب بلغت من الحمق أن ستطلب عون زوش على قدموس
أإلى زوش ؟!

أُورب
إي، وقدموس، أرتد
بسيف العلى على قدموسا !

الأعمى
لنفسه
فَعَلَ السُّمَّ فِعْلَهُ فِإِلَى السَّاحِ.

الشَّهَداءُ السَّامِعُونَ

مرى وحدها

تَضَلَّانِ، والذي ضَلَّ ديسا !

تُصَلِّي

رَبِّ، رُدَّ الْأَهْوَالِ أَقْبَلْنَ يَضْرِبْنَ،

وَجُدَّ لَاتَ مَا خَلَكَ يَجُودُ !

رَبِّ، جَلَّتْ يُمْنَاكَ لَا تَعْرِفُ الْقَبْضَ،

فَمَنْ مِنْكَ، رَبِّ، لَا يُسْتَزِيدُ ؟

كَلَّمَا غَبَّتِ الْحَسَّاسِينَ مِنْ مَاءٍ،

رَأَتْ حُلُوءَ إِلَيْكَ بِشَكْرِ.

وَتَعَالَتْ إِلَيْكَ فِي لَفْتَةِ الصَّبْحِ،

صَلَاةً مِنْ زَقَزَقَاتِ وَزْهِرٍ،

جُمِعَتْ، رَبِّي، الْخَلِيقَةُ فِي صَوْتِي

تُنَاجِي، وَسَبَّحَتْ تُتَغْنَى،

وَتَمَلَّتْ، فِي رِفْعَةِ الرَّأْسِ وَالطَّرْفِ،

جُثُّوْا مِنْ رُكْبَتَيْنِ وَوَهْنًا.

وَأَنَا أَسْتَجِيرُ بِالرَّحْمَةِ الْأُولَى،

بُنُورِ الْأَنْوَارِ، بِالْيَنْبُوعِ،

أَنْ تَقْبَلَ، رَبِّي، قَرَابِينَ حُبٍّ،
ورجاءٍ، وذِلَّةٍ، ودموعٍ.

أَعْطِنَا، رَبِّ، قَبْلَ كُلِّ عَطَاءٍ،
أَنْ نَحُطَّ التَّفَاتَةَ فِي سَنَاكَ،

كُلُّ مَا دُونَ وَجْهِكَ الْجَمِّ وَهُمْ :
أَعْطِنَا، رَبِّ، أَعْطِنَا أَنْ نَرَاكَ !

وَتَرَأْفَ، يَا أَيُّهَا السَّعَةُ الْكُبْرَى،
وَتَرَأْفَ، بِاللَّائِذِ الْمُحْتَاجِ،

وَانْصُرِ الْقَابِسِينَ مِنْ فَيْضِكَ الْهَدِيَّةَ
لِلْكُوكَبِ الصُّلُولِ الدَّاجِي.

لِأَلَاتِ كُلِّ هَضْبَةٍ فَوْقَ لِبْنَانٍ
تُصَلِّي، وَهَامَ كُلِّ فُضَاءٍ،

وَتَسَامِي مَجَامِرًا جَبَلِ الْأَطْيَابِ،
فَافْتَحْ، يَا رَبِّ، بَابَ السَّمَاءِ !

الشُّهَداءُ السَّابِعُ مرى، الأعمى

الأعمى
بِشْرَ شَعْبِ الإغريق ! بِشْرَكَ، أَوْرَبُ،
فَقَدَمُوسُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيِّتٍ.

مرى

وقد استحال عليها تصديق النبأ
كَذِبٌ.

الأعمى
لو رأيته جرّ الخزي
جريحاً على الثرى، لازدريت !

مرى

كان دُنْيَا.

الأعمى
وذلهُ الخصمُ ذُلًّا.

مرى

منذكرة تَمَّة بطولته

أنا أبصرته فرى كبرياءه.

وتلقاه، حذرة الرد، بالضربة
كبت على الحضيض مضاءة.
هاج يكسوهما العجاج، فلم أبصر
سوى السيف صاعقاً كالضمير،
والأساطير حول ضربته تولد
في الصخر، في الرُّبى، في العصور.
أجفل الشط، أجفل الموج للساحة
ترتج بالبطولة غرياً،
فتغير البحار خوفاً، وتكسو الصمّت
عمقاً، وتكسب الشمس جلياً.
أنا أحسست عند وقع الجناحين
صراخاً من عالمٍ في انهيار،
يتولى محلوكاً في الدّهارير،
ويفنى مّولولاً في الدمار.
وعلى الأنمل السّنيات من قدموس
بيضاء نجمة تتفتّح،
طافراً من جلالها مثل صبرح
يتعالى بين النّجوم ويمرّح.
أفهدا، أعمى البيوسى، يُسام الخسف
والدّل ؟ لا.

الأعمى

بلى ! وقضاء

حطّ من كبريائه عند صخرٍ قابعٍ، فهو والمنى أشلاء.

مَنْ مَعِينِي أَصُبُّ فِي سَمْعِكَ الْوَقْعَةَ
أبلى فيها القضاء سخياً.

قال : « ما كان للمكابر عزمٌ ! »
وطواه على المذلة طياً.

أنا، مِنْ خِيفَتِي، حَمَلْتُ إِلَى زَوْشَ
صَرَخَ الصَّرِيعُ حَوْلًا وَطَوَّلًا،

أنا أَرْجَفْتُ حَوْلَ قَدْمَوْسَ أَنْبَاءَ
اقشَعَرَّتْ لَهَا الْفَرَائِصُ هَوَلًا،

حَرَكْتُ زَوْشَ رِعْدَةً فَجَرَّتُهُ
غَضَبًا مُتَرَعَّ الشَّبَابِ، أَصَمًّا،

وَعَلَّتْ فِي يَدَيْهِ صَاعِقَةٌ شَمْطَاءُ،
مولودةٌ مع الدَّهْرِ قَدَمًا.

ومشي في غَمَامَتَيْنِ إِلَى قَدْمَوْسَ،
يهوي بزَعزَعٍ إِثْرَ زَعزَعٍ،

شَدَّدَ الْوَحْشَ صَوْتُهُ، فَتَمَلَّى
مَنْ نِيُوبٍ فِي فَكِّهِ لَيْسَ تَشْبَعُ،

هَبَّ يطوي العَجَاجَ في طَلَبِ الثَّارِ.

مرى

نافذة الصبر

وقدموس !

الأعمى

في اتَّقَاءِ الصَّوْاعِقِ،
لَفْتَةً في اللَّطَى، وأُخْرَى الى الخَصْمِ،
ولا زَنْدَ، آنَ يَضْرِبُ، واثقُ.
أَبْدًا لا يَقَرَّ عَيْنًا، وإِلَّا
حَطَّمَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ شَظِيَّةُ،
أَبْدًا لا يُكَّرِّ كَرَّتِهِ الْأُولَى،
وإِلَّا التَّقَّهَ نَابُ فِتْيَةٍ.
فهوى.

مرى

موجعة تأبى مجرّد التفكير بانْهزام قدموس
لا تقل !

الأعمى

وجرّر جثماناً
على الأرض.

مرى

لا !

الأعمى

وعَفَّرَ حُلْمًا.

مرى

خَلَّنِي !

الأعمى

بتلذذ

وانطوت على ليل عينيه

أَمَانِيَّهُ الْبَوَاسِمْ دُهِمًا.

وترأّت له، على البُعْدِ، آمَالٌ

عِراضٌ فِي كَسْفَةٍ وَاصْفَرَارِ،

وَجْهٌ صِيدُونِيَا يَغِيبُ، وَغَابَاتُ

الصَّوَارِي الْعُلَى، وَمَلَكُ الْبَحَارِ؛

وَرَأَى مِخْلَباً ...

مرى

حنائك ! يكفيني.

الأعمى

وَنَاباً ...

مرى

دعني !

الأعمى

وعيناً ...

مرى

أقلاً !

الأعمى

ورأى رغبة اللّعب على الفكين.

مرى

هارية

لا لا !!

الأعمى

رأى القضاء مُطلاً.

وأنا ذاهلٌ على صخرتي، أزهو
كأعمى في ثأره غير أعمى ؛
أفجم الشمس في الضُّحى، فأرد النَّصرَ
كسُفّاً وأُطلُع العزَّ وهماً.

ثملاً بلذّة الثَّارِ

ريّةً بي ؟ ضللتِ، مُرضعَ قدموسَ،
رجاءً، ضللتِ سهماً وقَصداً.

فخذِها وقِيعَةً عَصَفَتْ بِالْفَتْحِ
يَبْسًا، وبالجزائر جُرْدًا.
أُنْظِرِي، تَلْتَقِيهِ أَضْغَاثُ حُلْمٍ
نَصَرَ قَدْمَوْسَ.

الشَّهَدُ السَّامِ الأعمى، قدموس

قدموس

متفكراً حزيناً

نَصْرُ قَدْمَوْسَ دَامَ !

الأعمى

رَبِّ ! قَدْمَوْسُ فِي الْوُجُودِ !؟

قدموس

وما هَدَّتْهُ

دُھَمُ الْأَهْـوَالِ وَالْآلَامِ !
وَقَعَةٌ كَالْكَذَابِ ! شِقُّ مِنَ الْغَيْبِ،
وَشِقُّ مِنَ اللَّيَالِي الدِّيَاجِسِي.

مستجمعاً ذاكرته

كيف كانت ؟ بينا أنا تحت وَبُلٍ
راجمٍ من صواعقٍ وعجاجٍ،
عَبْثاً أحتمي بأشدق غورٍ،
عَبْثاً أتقي بأصلع صخرٍ،
وَنُوبٍ صفراءُ تلمعُ دوني
في صريرٍ يحزُّ أعماقَ صدري،
لَوحت لي، على البعيد، يدٌ بيضاءُ
تزهو بالأحمر الأرجواني،
ذكرتني أوربٌ، عهدَ العذارى
طافراتٍ على رُبي لبنان،
أيُّ نَعْمَى في وجهها ! لا سَنَى الاشرارِ
أبهى ولا جلالُ الغروبِ.
قَدْهَا شِلْحُ زنبقٍ أبيضٍ عَفٍّ،
وتخطو فالأنس ملءُ الدُّروبِ.
طَوَّقَتني بالبشر، مذ ضحكْتُ لي،
وَرَنْتُ صوبَ زوشَ تسألُ رِفاً،
كان إن مَسَّ طرفُها نارَ زوشٍ
يترك النارَ ياسميناً وورداً.

وَتَنَفَّسْتُ أَلْتَقِيَ عِزْمِي الرَّاجِعَ
فِي وَابِلٍ مِنْ الزَّهْرِ نَضْرٍ،
وَنَفَضْتُ الْغِبَارَ عَنِّي وَأَطْبَعْتُ،
عَلَى وَحْشِهِمْ أَقْدُ وَأَفْرِي.
خَلَّنِي خَلَّنِي مِنَ الْفَخْرِ.
الْأَعْمَى

مُسْتَفْهَمًا يَهْلَعُ

مَا مَاتَ !

قَدَمُوسُ

بَلَى ! انْهَارَ لَا يَحِيرُ صَرِيْعًا

الْأَعْمَى

قُلْتُ ؟ ! ...

قَدَمُوسُ

مَاتَ الصَّبَاحُ فِي تَيْنِكَ الْعَيْنِينَ،
وَارْبَدَ كُلُّ أَفْقٍ وَرِيْعًا،
وَعَلَا هَاتِفٌ أَنْ « افْتَضَّ مِنْ فَكِّهِ،
وَأَزْرَعُ أَضْرَاسَهُ فِي الْفَلَاةِ،
تُبَتِ الْأَرْضُ مَنْ يَشِيدُونَ لِلْقَدَمُوسِ
أُولَى الْمَدَائِنِ الْخَالِدَاتِ ».

الأعمى

هل أجبت الداعي؟!

قدموس

كأنما يلوم نفسه

أجبتُ ! وما أنجزتُ

حتى لم يبقَ ظلٌ لرؤيا،

وتهاوى الظلام حولي كثيفاً،

خِلْتُ دنيا راحت تُحطّم دنيا.

وعرّى بسمتي خريفٌ من اللون،

وأحسستُ وحشةً في الصّباح،

موجعاً

أيّ جفنٍ يُغضي فيلهب صدري !

أيّ جيدٍ يُلوي فيكوي جراحي !

وسرى الخوفُ فيّ للمرّة الأولى !

سرى ؟ لا.

الأعمى

بثّار

بلى، وكان نذيراً !

قدموس

بِمَ أُنْذِرْتُ ؟ قُلْ .

الأعمى

بِأُورَبْ، يا قدموسُ .

قدموس

أُخْتِي ! ...

الأعمى

تَحِيَا الصَّبَاحِ الأَخِيرَا !

قدموس

يفتديها ...

الأعمى

مَنْ، أَيُّهَا الصَّارِغُ العِزَمَ

يَقِيهَا أَمْسَةَ الخَالِدَاتِ ؟

إِنْتَظَرُهَا أَمْرٌ مِنْ شَجْوِكَ الْيَوْمَ،

وَأَمْضَى مِنْ مِخْلَبِ الحَسَرَاتِ .

قدموس

آه وَيَحِي !

الأعمى

بِسُخْرِيَّةٍ وَمَرَارَةٍ

ما أجمل الآه سَيْفاً
قاطعاً في يد الكَمِيّ فِرْنِدا.
قُمْ إلى سيفك الجديد، وأفجم
قَدراً رحت تزدريه، وَصُدا.
« قدر فوقنا » مقالة جُبْنٍ ؟
أرني، يا ابنها، وَغَى غير جُبْنٍ،
بطل ؟ كُنْهُ في إقائك أقدارك،
كُنْهُ زُهاء طُرْفَةِ جَفْنٍ.
أحْتُك اليومَ للمَنِيَّةِ.

قدموس

زُور.

الأعمى

زمجر السَّيْلُ، وَهِيَ منه حصاة.
أُخذ، فتى البحر، خذ بناصرها الآن
وللرَّيحِ غُصْبَةٌ وافتئات.

قدموس

عَزَمْتِي ! عَزَمْتِي !!

الأعمى

خيوطٌ من الوهم،

وومضُ من الشراب نحيلاً،

فأبكِها.

قدموس

مستبعداً الفكرة

لا !

الأعمى

تقول : « لا » وعلى وجهك
جَهْشٌ من الأسى، وعويلٌ.

قدموس

أنا !

الأعمى

أوهى من امرأة، في مراميك
ازورار، وفي قواك انهيار،
واجفُ الجسم ...

قدموس

لا ! وبأسي، يا أعمى،

وزندي ؟

الأعمى

باحترار

هشّ ولونّ مُعارُ.

طيفُ جسمٍ يكاد يخلعك اليومَ.
ويمشي عليك.

قدموس

لا.

الأعمى

ويدوسُ.

قدموس

أنا ؟ أُغنيّةُ الرماح، عِنانُ البحر... ؟

الأعمى

كأنّما يردُّ بالقول نفسه الذي ردّ به قدموس في الفصل الأوّل
أمساً.

قدموس

أمساً ؟ أنا قدموسُ،

تَوَأَّم العزم ... ؟

الأعمى

هاتِ من عزمك اليوم،
وَحَوِّزْ في صفحة الأقدارِ،

خُطَّ في صبحك المريضِ ولو حرفاً،
وزَحزَحَ قُلامَةٌ من غُبارٍ.

قدموس

مذعنًا للحقيقة

جَهْمَةٌ طلعتُ الصَّباحَ، وخرسأُ
التَّنّادي في أضلعي المُعُولاتِ ؛
ويكاد الشُّعاعُ يلهبُ أعصابي،
ويهمي أسِنَّةٌ في شَكَاتي.

الإلهات

من الدّاخِل

ما له الدَّمْعُ طابُ !
مجدُّ أُرَبِّ طَواه الرَّدَى.
رُقِّ، يا وردُ، ونُحْ يا ندى :
« وَجْهٌ صِيدُونُ غابَ ».

المشهد التاسع

قدموس، الأعمى، مرى

قدموس

وقد رأى مرى تدخل عليه وحدها مذعورة، محطمة
وحذك اليوم؟ فيم صمتك؟! ضجّي.
أَوْحَقُّ إِعْوَالُ هَذَا السُّكُونِ؟
أَوْأَغْمَضَتِ أَنْتِ طَرْفًا عَلَيْهَا
وَاخْتَرْتِ الْبَهَاءَ طِيَّ الْجَفُونِ؟!
أَوْشِمَتِ الذَّرَاعَ تَهْوِي عَلَى الْقَدِّ،
وَكَانَتْ إِشَارَةً فِي الْكَمَالِ؟!
بَاعَدَتْ فَاقْتَفَيْتُهَا، فَدَفَعْتُ الصَّخْرَ
مِنْ غَفْلَةٍ إِلَى صَحْوٍ بِالِ.
أَوَمَاتِ عُرُوشُ لَبْنَانِ؟! جَوْعِي،
يَا تَرَابَاتِنَا إِلَى رَطْبِ ظِلِّ،
وَاهْدِئِي، يَا غُصُونُ، وَاصْفَرِّي يَا زَهْرُ،
فَمَنْ بَعْدَهَا لِحُسْنٍ وَدَلِّ!

الأعمى

مقرعاً

مُدَّ كَفًّا إِلَى الْحَقِيقَةِ، يَا فَاتِحُ،
وَالْمُسُّ، فَمَا الْحَقِيقَةُ زُورًا.
تَقْحُمُ الْأَرْضَ، تَقْحُمُ النَّجْمَةَ الْأُخْرَى،
وَتَبْقَى دُونَ السَّمَاءِ صَغِيرًا !

الْإِلَهَات

مِنَ الدَّاخِلِ

سَوْفَ تَبْقَى، غَدًا،
لِلْأُولَى يَمْضُونَ لَا يَرْجِعُونَ،
— حُدُّهُمْ فِي السَّعْيِ حُدُّ الظَّنُونِ —
إِصْبَعًا فِي الْهَدَى.

غَنَّنَا بِاسْمِهَا،
وَأَقْعًا مَلًّا، فَكَانَ الْخِيَالُ.
مَنْ تَرُخْ تَقْرُعْ بَابَ الْمَحَالِ
تُدْمِهِ، يُدْمِهَا !

مَرَى

كَأَنَّمَا تَنْعَى أَوْرَبَ
غَابَتِ الشَّمْسُ !

قدموس
ربّ !

مرى

وقد ظهرت رؤيا لمدينة تشاد مشيقة الأعمدة، شاهقة القباب، ترصف
حجارتها، كما جاء في الأسطورة، كل ردّاً على نغم، ومداميكها كل
استجابة لإيقاع

حدّق !

قدموس

. وكأنّما تهلّل وجهه لأوّل مرة

هُم صيدون

راحوا بينون أبراج ثيبا،

رفعوها أنقى من الشمس لألاء،

وأبهى من العلاء وثوبا !

البحارة الصيادنة

من الداخل

غرّبي، يا بحار،

شرداً بالأمل الغضّ،

ههنا، في آخر الأرض،
كَرَمَةٌ لي ودار.

الإلهات

من الداخل

ما لَهُ الدَّمْعُ طابَّ !
مجدُّ أَوْرَبْ طواه الرَّدَى !
رُقَّ، يا ورد، ونُحْ، يا ندى :
وجهُ صيدون غابَّ !

الأعمى

وقد ظهرت رؤيا أخرى، قبالة الأولى، لآلهات يتجبن حول قبر من رخام
عال، أنيق
قبرُ أَوْرَبْ !

مرى

ولم تنفكَّ شاحصةً إلى الرؤيا الأولى
مُلْكُ صيدونيا !

قدموس

محطماً يتأرجح بين المشهدين : مجد بلاده ومصرع أخته
قَسَمْتُنا

من هداية وفتوح :
نحمل الأرض، إن نَشَأُ، فوق كَفَيْن ؛
ونمضي كريشة في الرِّيح !

ستار

تمت

فهرست المجلد

| | | |
|-----------|-------|-----|
| بنت یفتاح | | ۵ |
| المجدلیة | | ۷۳ |
| قدموس | | ۱۳۱ |



alexandra.ahlamontada.com

للمزيد من الروايات والكتب الهامة

زورونا على العنوان التالي

ALEXANDRA-AHLAMONTADA.COM

أو البحث في جوجل

اكتب

منتدى مكتبة الاسكندرية

دائماً هناك الجديد والمميز

نرحب بكم في اسرة المنتدى